النبي موسى المصري الذي قاد اليهود



دكتور علي حسني

دار الفكر العربي

دكتور علي حسن

النبي موسى المصري الذي قاد اليهود

الملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الفهرس

صفحة

تمهيـــد وتعريف بالمؤلف

كيف ظهرت فكرة التوحيـــد وتطورت ؟ ومتى ظهرت فكرة الآخرة ؟ متى استيقظ الضمير ؟ وكيف أصبح العدل أسمى القيم البشرية ؟.

وما هو جوهر الحضارة المصرية القديمـــة ؟ أهى الأهرام والتماثيل والمعـــابد ؟ أم أن جوهر هـــذه الحضارة أعمق وأهم من هـــذا كله ؟.

موسى المصرى .

العملاق الذى أبى أن يتنـــكر لفـــكره ، وفضل ان يتنكر لمن نشأ بينهم .

موسى نبى الله .

الذى قاد اليهود .

ماذا سبقه ؟.

وكيف مهدت له الطريق ؟.

فى اطار أدبى جذاب ، وبأسلوب جميل رائع تدور حوادثه

هذه القصة ، تلك الأحداث التى غيرت وجه الأرض ودفعت بالفكر البشرى نحو مسيرة جديدة .

كل ذلك هنا وفوق أرض مصر .

لذلك ترى هذا التصوير الرائع ، الذى جاء من مؤلف لا يحب شيئا قدر حبه لكلمة مصر .

لكن من هو المؤلف ؟.

على حسن ولد بالاسكندرية عام ١٩٣٥ غادر مصر متجها الى ألمانيا الغربية عام ١٩٥٩ حيث حصل هناك على الدكتوراه فى علوم اللغة الألمانية والتربية من جامعة ميونخ وذلك عام ١٩٦٨ اهتم بعد تخرجه بعلم الطرق الحديثة لتدريس اللغات الأجنبية الذى قام بتدريسه بجامعة برلين الحرة فى الفترة ١٩٧٣ — ١٩٧٤ ، ثم اختارته هيئة التبادل الأكاديمى الألمانية ليكون مبعوثا لها بجامعة وهران بالجزائر ، حيث قام بالتدريس هنـــاك فى الفترة ما بين ١٩٧٤ — ١٩٨٠ .

بدأ الكتابة عام ١٩٧٠ حيث صدر له باللغة الألمانية كتاب :

Wenn Israel den Frieden wollte

أى : « لو أرادت اسرائيل السلام » وعنوان هذا الكتاب افتراض يحمل فى طياته ان اسرائيل فى واقع الأمر لا تريد السلام .

أعقبت ظهـور هـذا الكتاب مؤلفات أخـرى فى الفترة ١٩٧٣ — ١٩٧٤ هى :

١ — Der Behaviorismus und der Fremdsprachenunterricht

أى : « علم النفس السلوكى وعلاقتـه بتدريس اللغـات الأجنبية » .

٢ — Zur Kritik an der arabischen ö lpolitik

أى : « تحليل لما وجه من نقد الى سياسة البترول العربية » .

هذا وقد مثل المؤلف وجهة النظر المصرية خاصة والعربية عامة مرات عديدة بالتليفزيون الألمانى وذلك أثنـاء حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ .

والمؤلف يعود الى اللغة العربية .

لأنه يحبها أولا . وهذا ما يشهد به جمال أسلوبه .

ولأنه لم يفقد أبدا ارتباطه بالوطن .

رغم بعد دام الآن ٢٤ عاما .

لذلك نرحب به ونفخر بتقديمه الى القارىء العربى .

النـاشر

١ ــ فى البدء كانت الكلمــة

ما كادت تمضى أربع سنوات على وصول نفروتيتى (نفرتيتى) الى طيبة ، عاصمة مصر ومركز عبادة آمون حتى بدات الملكة تشعر بالاستياء مما ترى كل يوم وتسمع .

نعم لقد بدأت الملكة التى قدمت من سوريا تشعر بالاستياء من ديانة آمون وكهنته . ولأنهــا أجنبية غريبــة ، فقــد ترددت فى بادىء الأمر أتجهر بأفكارها أم تحتفظ بها سرا لنفسها . لكنها فى النهــاية لم تستطع الصمت ، فقررت أن تصــارح زوجهــا بما فى صدرها ؛ فهو وان كان أصغر سنا منها الا أنه الملك . ثم انه بعد هذا كما عرفته دائما شاب يميل الى الفلسفة ويحب التأمل .

وجاء كبير كهنــة آمــون يوما يطلب مقابلة الملك . ودخلت الملكة بعد انتهاء هذه الزيارة على زوجها الشاب الصغير ، فوجدته واضعا رأسه بين كفيه ، غارقا فى التفكير الى درجة جعلته لا يتنبه لدخولهــا . هنــا دار بين الاثنين حوار بدأ هادئا ، لكنه ما لبث أن تحول الى حديث ثائر حاد غير وجه العالم ودفع بالفكر البشرى نحو مسيرة جديدة .

نفروتيتى : لقد رأيت كبير الكهنة يغادر قاعة العرش منــذ قليل ، لعله جاء بخير .

أمنحتب الرابع : انهم نادرا ما يفعلون ذلك .

نفرتيتى : فماذا اذن يريد ؟.

أمنحتب الرابع : أن أسمح له برفع قيمـــة العوائد السنوية التى يحصل عليها معبد آمون وأن أستشيره مستقبلا فى أى قرار سياسيا كان أم عسكريا .

نفروتيتى : وبأى حق هذا ؟.

أمنحتب الرابع : يقول انه همزة الوصل بين آمون والملك . فان أراد الملك رضاء آمون وجبت عليه طاعة كاهنه الأعظم .

نفروتيتى : ارادة الاله شىء وارادة رجال الدين شىء آخر .

وصمت الملك . لم يدر أيوافق زوجته على ما تقول أم يوقفها عند هـــذا الحـــد .

صمت الملك لحظة قصيرة ، فاذا به يقول :

أمنحتب الرابع : انهـــا بلا شك محاولة للضغط والاكراه ، وهم كثيرا ما يلجأون لمثل هذه الأساليب .

نفروتيتى : هى أيضـــا محـــاولة للابتزاز ، فهـــو يطالب بالسماح له برفع قيمة العوائد .

وعاد الملك الى الصمت مرة اخرى ، لكنه لم يستطع ان يكتم اعجابه بصراحة زوجته وجرأتها ، فقـــال :

أمنحتب الرابع : انى أحب الاستماع اليك ، فبقدرتك رؤية الامور كما هى عليه فعــلا ، ثم انك تعتبرين هــذا السلوك أمرا طبيعيا ، فتعبرين عن رأيك فى شجاعة وصراحة وبدون خوف . دون خوف ودون رياء أو نفاق .

وبدلا من أن تبدى الملكة ســعادتها بما قاله الملك ، اذ بهــا ترد فى اعتزاز ، وكأنهــا تريد أن تصحح خطأ ارتكبه الملك دون أن يدرى :

نفروتيتى : انى ملكة مصر !.

دهشت كلماتها الملك . انها ملكة مصر وهو يعلم ذلك جيدا . فلماذا هذا التأكيد ولماذا تلك الحدة التى بدت واضحة على لهجتها ؟ لكن نفروتيتى عادت لتقول فى اعتزاز أكثر وبتأكيد أشــد حــدة عن ذى قبــل :

نفروتيتى : وأنت الملك .

قالتها بصوت عال ، وكأنها تريد ايقاظ الملك وتذكرته بأمر كان قد نسيه . لكنها ما لبثت أن عادت الى هدوئهــا مرة ثانيــة لتقول :

نفروتيتى : الملوك لا تكذب لأنها لا تهاب انسانا . النفــاق والرياء من عادة الخدم والعبيد ، فهم مضطرون الى ذلك .

نهض الملك الصغير من مكانه ، وسار فى خطوات بطيئة نحو نافذة تطل على الحديقة الغربية .

نعم أنا الملك والملوك لا تهاب . لكن ألم يكن أبى يهاب كهنة آمون ؟ نعم كان يهابهم والا فلماذا لم يحاول الحد من نفوذهم ؟ لماذا كان يتفادى دائما الدخول فى صراع مفتوح معهم ؟ أنا الملك . لكنهم الكهنة . الأكاذيب حرفتهم ، والتضليل فنهم ، ولا أسلوب لهم غير الغوغائية . لكن ما العمل ؟.

وقف الملك الصغير أمام النافذة تراقبه نفروتيتى فى صمت . الى ماذا ينظر ؟ الى الأشجار والزهور ؟ الى النيل الذى تنتهى عند شاطئه حدائق القصر ؟ أم هو ينظر الى الحقول الخضراء على الضفة الأخرى والى ما وراء الحقول من جبال ؟ واى أفكار يا ترى تدور فى رأسه ؟.

لقد أرادت نفروتيتى بكلماتها المثيرة ايقاظ الملك ، لكننا لا نستيقظ قبل أن نحلم ، واذا استيقظنا دون أن نحلم ، فما اشد رغبتنا فى العودة الى النوم ! عادت أحلام اليقظة بالملك الصغير الى الماضى ، فعندما يظلم الحاضر نبحث دائما فى الماضى عن شعاع يضىء لنا الطريق .

الذكريات تتوارد على خاطره . ذكريات متصلة متلاحقة تمر أمام عينيه فى سرعة غريبة ، لكنها رغم سرعتها واضحة دقيقة .

الحلم أولا ثم اليقظة ! وعادت الأحلام بالملك الصغير

الى الماضى ، حيث كان يمضى فى طفولتـــه كل يوم ساعات كثيرة فى حدائق القصر ، فى صحبة أمنحتب ابن حابو ، الذى أولى اليـــه أبوه مهمة تربيته .

وتتوقف الذكريات عنـــد صورة ثبتت أمام عينيه لا تتحرك ، صورته يتنزه عنـــد الغروب فى رفقة أمنحتب ابن حابو . الأمـــير الطفل يسأل والكهل الفيلسوف يجيب . الأمير ينصت ويندهش لما يســـمع والكهـــل يهدىء من روعه قائلا ان الدهشة هى بداية الحكمة ، فمن لا يندهش لا يسأل ، ومن لا يسأل لن يتعلم ولن يقترب من الحقيقة .

أمنحتب الرابع : قل لى يا ابن حابو ، لم لا تحـــدثنى أبدا عن آمون ؟.

أمنحتب ابن حابو : ان الآلهـــة يا بنى ليست فى حاجـــة الى حديثنا عنها ، بل هى ليست فى حاجة الى صلاتنا وعبادتنا ، فلن يزيد حديثنا عن الآلهة من عظمتها ، ولن يقلل صمتنا من شأنها .

أمنحتب الرابع : لـــكن ديانة آمـــــون هى ديانة الدولة يا ابن حابو ، وأنا ولى العهد . فهـــل من الحكمة ان أعتلى يوما عرش مصر وأنا جاهل بديانة آمون ؟ أليست ديانة آمون هى ديانة الملك ؟.

أمنحتب ابن حابو : ان الوصول للحقيقة فى أمور الدين أمر يسير عســـير . ان آمون ورع واوزيريس كلها كلمات ، أسـماء

ليس الا ، وما يهمنا هو المسمى وليس الاسم . الاله الحق يحث دائما على الحب والتسامح . الاله الحق يأمر دائما بالرحمة والعدل بين النـــاس . الاله الحق يابنى ، ان اتبعت وصاياه ، قصرت المسافة بينك وبين الناس وأحبك الشعب .

أمنحتب الرابع : وهل لآمون كل هــذه الصفات ؟.

أمنحتب ابن حابو : لا أدرى يا بنى . انى لم أره ، ولم أسمعه . كل ما أرى وما أسمع هى أعمال الكهنة وأقوالهم . وهى تدعو للنفور . لقد جعلوا من الدين تجارة يربحون منهــا ، ووســيلة يفرضون بها سلطانهم على الشعب والملك .. وكم وددت حقــا أن أتحدث معك طويلا عن الدين والفلسفة ، لكننى كلما شاهدت كهنة آمون ، وما يسعون اليه من كسب وتضليل أحسست بالكآبة .

أمنحتب الرابع : وأبى ! ماذا يقول ؟.

أمنحتب ابن حابو : حاشـــاك يا بنى . الملك يرى ويعــلم كل شىء . وليس من حقى أن أتحدث معه عن آمون اله طيبة .

ويسود الصمت . وتبدو الحيرة على وجه أمنحتب ابن حابو الذى ســـمح له أمنحتب الثالث أن يسمى نفسه بنفس الاسم ، ذلك تقديرا من الملك لسمو هذا الرجل واعترافا منه بما قدمه لمصر من أعمال جليلة . صمت أمنحتب ابن حابو لحظة ليقول :

أمنحتب ابن حابو : ارجــو المغفــرة يا بنى . انى لا احب فى الواقع الحديث عن آمون وكهنته ، فدعنا نتحدث عن أمر آخر .

أمنحتب الرابع : انك انسان غريب الشأن حقا يا ابن حابو .
يقول أبى انك أكبر فيلسوف فى مصر ، لكننى أراك تتفادى الحديث
عن أمور الدين . ثم اننى نادرا ما أراك تكتب ، بل أنت عادة ترسم
خطط البنـــاء ، وأنت تمضى جزءا كبيرا من وقتــك مع المهندسين
والعمال ، لا تشرف على عملهم فحسب ، وانما تشترك معهم بيديك
فى هذا العمل . فهل الهندسة والبناء نوع من أنواع الفلسفة ؟.

أمنحتب ابن حابو : من حقك أن تسأل يا بنى . لقــد اعتاد
المصريون أن يحولوا أفكارهم الى أعمال . اننا يا بنى شعب لا يحب
الأفكار التى لا تتعدى حدود الكلمات . لذلك فنحن مولعون بالبناء .
اننا الشعب الوحيد يا بنى الذى لا يفرق بين الحكمة وبين فن البناء .
بل نحن نؤمن بأن لا فكر ولا فلسفة بلا بنـــاء وأن لا بناء بلا فكر
وفلسفة .

وتختفى صورة ابن حابو ويتلاشى صوته ويسمع الملك صوت
زوجته تطلب الصفح منه ان كانت قد تجاوزت حدودها فى حديثها
الثائر معه . ويجيبها الملك :

أمنحتب الرابع : انى لست غاضبا .

نفرونيتى : أتسمح لى اذن فى تكملة حديثى ؟.

أمنحتب الرابع : بل ارجوك أن توحى لى بكل أفكارك .
الم تقولى ان الملوك لا تهاب انسانا ؟.

نفرونيتى : هــل صحيح أن آمـــون يبيح ما تدعى الكهنة

انه يباح ويحرم ما يدعون انه يحرم ؟ ان ارادة أهل الدين ليست ارادة الاله ، وانما هى أولا رغبتهم فى ارضاء أغراضهم الشخصية . لقد قرأت قبل مجيئى الى مصر أناشيد كثيرة تتغنى بعظمة آمون ، لكننى اكتشفت عند وصولى هنـا أن رجال المعابد يعطون لهـذه الأناشيد تفسيرا غريبا . انهم يستترون وراء اسم الاله كى يسهل عليهم الوصول الى ما يبتغون .

امنحتب الرابع : لا علم لى بكل هذا . وليس بامكانى الحديث فى أمور الدين مع كبير الكهنة .

نفروتيتى : انك فى الخامسة عشرة من عمرك ، لكنك الملك ولك وحدك الحق الشرعى فى حكم مصر . فان كان لا علم لك اليوم بأمور الدين ، فلابد ان تبدأ فى دراستها فورا .

وعاد أمنحتب الرابع الى صمته . وصمتت الملكة . ومرت دقائق لم ينطق أحدهما خلالهـا بكلمة واحـدة . ساد الهـدوء قبل ان تهب العاصفة . ثم اذا بنفروتيتى تعود للحديث فتعلن :

نفروتيتى : ان آمون الذى يتحـدث عنـه الكهنة اله آخر غير آمون الذى كثيرا ما قرأت كلماته قبل مجيئى اليكم . لقد جعلوا من آمون وسيلة يستخدمونها لتحقيق ما يطمعون فيـه من سلطة او مال .

التجار يغشون الميزان ..
فاذا زاد ربحهم ..
قالوا هذا من كرم آمون .

اللصوص يسرقون ..
فان سألتهم من أين لكم هذا ؟
قالوا هو رزق آمون .

قطاع الطرق يقتلون ..
فاذا انتهوا من جريمتهم ..
قالوا أنت الستار يا آمون .

الناس يكيد بعضهم لبعض ..
والكل يطلب من آمون ..
أن ينصره على الآخر .

المنافقون وهم يكذبون ..
يصلون لآمون فى سرهم ..
كى لا يفضح أمرهم .

لقد حولوا آمون الى اله يرزق اللصوص ، ويعاون قطاع الطرق ، ويتستر على المجرمين . ان هذا ليس آمون . أما ان كنتم تصرون على أن هذا هو الاله فأنا أعلن : اننى لا أومن بآمون .

وكانت الصاعقة . هيىء للملك الصغير أن الأرض قد زلزلت زلزالها . نعم هيىء اليه أن زلزالا قويا يهز القصر ، بل مدينة طيبة بأكملها .

ومرة أخرى تعود به الذكريات الى الماضى .

مرة أخرى يرى أمنحتب ابن حابو ويسمعه يقول :

أمنحتب ابن حابو : ان الوصول للحقيقة فى امور الدين أمر يسير يا بنى . الاله الحق يحث دائما على الحب والتسامح . الاله الحق يأمر بالخير .

نفروتيتى تكرر اذن ما قاله أمنحتب ابن حابو . لكن الملك وان كان يقترب من الحقيقة فهو ما يزال حائرا ، يحاول الفهم ويريد الاقتناع . الملك يسأل الملكة :

أمنحتب الرابع : ماذا تريدين بكل هذا ؟.

نفروتيتى : لا أدرى . لكن علينا أن نضع حدا لنفوذ الكهنة أولا ثم نبدأ بعد ذلك فى التأمل فى ديننا . كيف وصل غباء الكهنة بالدين الى هذه الدرجة من التدهور ؟ يقولون انهم حراس الدين ، بينما هم فى واقع الأمر أشد عليه خطرا من أعدائه . ان كلمات الاله تحث على الحب والرحمة والتسامح . لكن أقوال الكهنة تدفع الناس الى الكراهية والقسوة والتعصب . انى نظرت الى الكهنة وهم يبشرون فلم أر غير وجوه تعبر عن القسوة والكره والحقد . انهم لا يحاولون الاقتناع بالحسنى ، وانما يلجأون الى العنف

والارهاب . أهذه هى ديانة آمون التى وعدت أبى قبل مجيئى اليكم ان أحترمها وأن اقدسها ؟.

وشعر الملك المصرى بالخجل ، واستولى عليـــه احساس بالغضب العميق . لا من زوجته ، وانما من الكهنة ومما يفعلون .

فى هذه اللحظة دخلت خادمة تعلن مجىء الملكة الأم تى — يا .

قالت الملكة الأم بعد أن تبادلت التحية مع ابنها وزوجته :

تى — يا : لقد علمت ان كبير الكهنة جاء اليوم للحديث معك .

امنحتب الرابع : هــذا صحيح .

تى — يا : زيارة مفاجئة ! دون تحديد ميعاد سابق ؟.

امنحتب الرابع : هــذا صحيح أيضا يا أماه .

تى — يا : ياللوقاحة . ان نفوذهم يزداد يوما بعد يوم .

امنحتب الرابع : هذه مشكلة سهلة الحل . وانى لاتعجب اليوم من سياسة أبى التى شجعتهم على هذا التمادى .

تى — يا : كان مضطرا يا بنى ، فمنذ أن طردنا الهكسوس والكهنة يعتبرون هذا النصر نصرا من آمون اله طيبة التى انطلقت منها حركة التحرير .

امنحتب الرابع : بعد زيارة الكاهن الأعظم كنت جالسا هنـــا

وحـــدى حائرا لا أدرى كيف أواجه الكهنة واحـــد من نفوذهم .
كان هذا فى الصباح . أما الآن فانى أنظر الى الأمور نظرة جديدة .
بوسعنا الحد من نفوذ الكهنة . وانى عازم على ذلك يا أماه .

تى ـــ يا : ما دامت قد توفرت لديك هذه الارادة وتلك الثقة بالنفس ، فليست هنـــاك اذن مشكلة . لكن قل لى : كيف تريد تحقيق ذلك كله ؟.

امنحتب الرابع : هناك مشكلة ثانية أكثر صعوبة من مشكلة الحـــد من نفوذ الكهنة ، وهو ســـؤال أصبح شاغلى الشاغل ، فان تمكنا من ايجاد اجابة واضحة على هـــذا السؤال استطعنا حل المشكلة الأولى .

تى ـــ يا : وما هو هـــذا السؤال ؟.

امنحتب الرابع : أتؤمنين بآمون يا أماه ؟.

وصمتت تى ـــ يا ، فقد كان سؤال الملك مفاجأة لم تتوقعها . لكنهـــا قالت :

تى ـــ يا : كيف لا أومن بآمون وهو أبوك الذى أنجبك . وأنت الملك لأنك ابن آمون .

أمنحتب الرابع : هذه هى العقيدة الرسمية للدولة يا أماه . هذا ما نقوله للشعب .

تى ــ يا : هــذا صحيح . فالذى أنجبك هو طبعا والدك امنحتب الثالث . لكن الملك لا يدخل على الملكة الا وهو يرتدى زى آمون ، حاملا كل رموزه . الملك عندما ينجب ولى العهد لا يفعل ذلك بصفته الملك ، بل هو ينوب فى ذلك عن آمون الذى يأذن له بأن يحل مكانه . أنت اذن من آمون .

امنحتب الرابع : دعينا من هذا يا أماه ! هل تؤمنين بآمون ؟ .

تى ــ يا : انى أرى نفروتيتى فأتذكر جدتك موتم ــ ويا . لقد كانت أم أبيك أجنبية غريبة مثل زوجتك . وكانت هى الأخرى لا تؤمن بآمون . اننى اليوم المصرية الوحيدة بالقصر .

وصمتت لحظة ثم عاودت حديثها قائلة :

تى ــ يا : اننى فى الواقع لا أهتم كثيرا بأمور الدين يا بنى . ما يهمنى هو عرشك . فان ظن الكهنة أن بوسعهم أن يتقاسموا الحكم معك ، أصبح لا مفر من مواجهتهم .

امنحتب الرابع : وان تطلب الأمر اصلاحا دينيا شاملا ؟ .

تى ــ يا : الغاية تبرر الوسيلة . هذا مبدأ قديم . الهدف هو الحفاظ على العرش من أجل وحدة الوطن ، فان وجدت وسيلة تضمن ذلك فلا تتردد . تسألنى عن رأيى فى اصلاح دينى شامل ؟ لم لا ؟ لقد كان امنحتب ابن حابو يرى ضرورة مثل هذا الجراء . لكن اباك كان ينتظر اللحظة المناسبة .

هنا قال الملك :

أمنحتب الرابع : شـــكرا لك يا أماه ! شـــكرا يا نفروتيتى ! انى عازم على القيام برحلة للصيد قد تستغرق أياما ، فالى اللقاء .

اندهشت الملكة الأم لهذا الوداع المفاجىء واندهشت نفروتيتى هى الأخرى لرغبـــة زوجها فى الخروج للصيد . لكن كلمات الملك الصغير كانت حازمة واضحة لا تدع مجالا للنقاش . وهكذا غادرت تى — يا قاعة العرش فى رفقة نفروتيتى .

٢ — وحى الأرض

لم يكن الملك فى واقع الأمر من عشاق الصيد ، بل كان يكره قتل الحيوانات البريئة ، الذى يرى فيه البعض وسيلة للتسلية .

لا ، لم يخرج الملك للصيد وانما خرج للبحث عن الحقيقة . لقد أمضى حياته كلها داخل أسوار القصر ، وحان الوقت أن يرى شعبه بعينيه . ألم يقل له أمنحتب ابن حابو ان الاله الحق يدعو للخير ؟ ليخرج اذن الى شوارع طيبة وأزقتها ليرى ان كانت كهنة آمون قد نشرت الخير بين الناس . الم يقل له ابن حابو ان الاله الحق يقرب الملك من شعبه ويقرب الشعب من ملكه ؟ ليخرج اذن الى الحقول كى يسمع صوت الشعب .

تنكر أمنحتب الرابع فى زى فتـــاة صغيرة ، وغادر القصر من باب خلفى ، ولم يخبر أحدا بذلك غير ضابط مخلص من ضباط الحرس الملكى .

خرج يتجول فى شـــوارع طيبـــة فرأى مجموعة من الرجال يسيرون حفاة الأقدام وقد بدا عليهم الجهد والاعياء . وتألم الملك لما يبدو عليهم من بؤس واضح . انهم بلا شك أجراء لاقطاعى كبير ، وانى ان استطعت معرفة اسمه سأدعوه فور عودتى الى القصر الى رفـــع أجور من يعملون بضـــياعه ، فان رفض ذلك لن أتردد فى اعطاء أرضه لمن يزرعها . سار الملك وراء الرجال دون أن يتنبهوا لذلك ، وكانت المسافة بينه وبينهم قد قربت بحيث استطاع سماع حديثهم بوضوح .

الرجل الأول : ماذا نفعل ؟ والى من نلجأ ؟.

الرجل الثانى : ان فى مثل هـــذه الأسئلة لكفرانا بآمون ! لمن تريد اللجوء ؟ ألسنا نعمل جميعا فى أرض الكاهن الأعظم لآمون ؟.

الرجل الأول : لقد أصبحت الآن مريضا غير قادر على العمل ، لكننى ان صارحت الكهنة بذلك سأطرد من العمل فورا . فماذا تفعل امرأتى عندئذ ؟ ومن أين القوت لأطفالى ؟.

الرجل الثانى : عليك بالصبر . آمون سيعينك على تحمـــل مصائبـــك .

الرجل الأول : اليس من الخـير أن يحول آمون دون وقوع المصائب بدلا من أن يساعدنى على تحملها ، فنستريح من آلامنا ويوفر على نفسه مشقة العون .

رجل ثالث : أتريد أن تتدخل فى مشيئة آمون ؟ ان ارادته سر لا نستطيع فهمه بفكرنا المحدود .

رجل رابع : ماذا قال لك الكاهن عندما تحدثت معه عن رفع الأجـور ؟.

الرجل الأول : قال ان أجر الآخرة خير من أجر الحياة الدنيا وحذرنى من الاهتمام بالمادة . قال ان الروح أهم من المادة .

الرجل الرابع : اننى لا أفهم هذه الأحاديث . ما هى الروح وما هى المادة ؟ كل ما أعلمه هو اننى فى حاجة الى القمح كى اشبع جوع أطفـالى . فان كان القمـح هو الروح فاننى أومن بالروح وأكره المادة . كل ما أبحث عنه هو أجر يكفينى لشراء قوت أطفالى ، وسيان عندى ان كانوا يسمون هذا الأجر روحا أم مادة .

الرجل الثالث : أنت تعلم مصير من يثور على كهنة آمون . ليس أمامنا غير الصبر والرضاء فكن عاقلا !.

الرجل الأول : أليس هناك عدل فى طيبة ؟ ماذا يفعل الوزراء ؟ ألا يدرى الملك بما نعانيه من ظلم ؟.

الرجل الرابع : الملك ! الملك ! الملك طفل صغير يلهو فى حدائق القصر ، بينما تتولى أمه ادارة الأمور . ويقال انها امرأة لا تهتم الا بالحفاظ على عرش ابنها .

الرجل الأول : اننـــا اذن ضائعون .

الرجل الثانى : هذا ليس بالجديد . اننا ضائعون منذ آلاف السنين . لقد كان آباؤنا بؤساء من قبلنا ، مثلهم فى ذلك مثل أجدادنا وأجداد أجدادنا ، مثلهم فى ذلك مثل أبنائنا وأحفاد أحفادنا من بعدنا .

توقف الملك عن السير . يا للمفاجأة ! الاقطاعى الظالم الذى كان قد قرر فى سره معاقبته فور عودته الى القصر هو كاهن آمون الأعظم ! الملك يفهم الآن السر فيما كان يبديه ابن حابو من استياء تجاه أعمال الكهنة .

وماذا يقول الشعب عن الملك ؟ طفل صغير يلهو فى حدائق القصر .

الملك يتجول باحثا عن الحقيقة . ويحل المساء ولا يعود الملك الى القصر ، وانما يمضى الليل فى شوارع طيبة وأزقتها ، فيرى نساء يبعن أعراضهن ، ورجالا يرتكبون الجرائم وآخرين يتسترون على الجرائم . شاهد بؤساء بلا مأوى يمضون الليل فى الخلاء ، فراشهم الأرض وغطاؤهم السماء .

فاذا حل الصباح رأى الملك رجالا ونساء كادحين جاهدين بحثـــا عن الخبز ، ورجالا ونســـاء يتمخطرون فى غرور وكبرياء

وقد ارتدوا أغلى الثياب . وقادته قدماه الى شارع تحتمس الثالث حيث يقيم أثرياء طيبة ، فرأى قصورا أكبر من القصر الملكى وحدائق أوسع من حدائقه . لكن ياللعجب ! ماذا يرى ؟ ساقين نحيلتين فوقهما أثاث منزل بأكمله . انه انسان يحمل فوق رأسه وكتفيه وظهره منضدة كبيرة ودولابا وعـددا من المقاعد . لذلك اختفت رأسـه وكتفاه وصـدره بين قطـع الأثاث . وقف الملك ينظر الى السـاقين النحيلتين والى حركتهما البطيئـة والى ما فوقهما من حمل ثقيل ، واذا بالرجل يفقد توازنه فجأة ، فيقع وفوقه ما يحمل من أثاث . ويقترب بعض المارة من الرجل يرمونه بنظرات قد خلت من الشفقة .

الأول : ان من يحمل أثاث الناس يجب أن يحترس أثنـاء سيره ، فمال الناس أمانة فى عنقه . لقد تحطمت المنضدة الجميلة ، لكن هذا الأحمق لا يدرى قيمة ما يحمل . انهم يطالبون دائما برفع الأجـور ، لكنهم لا يفكرون أبدا فى مسئوليتهم تجـاه العمـل . ياللغبـاء !.

الثانى : لقد قام عمال البلدية قبل دقائق قليلة بتنظيف الشارع ورشه بالمياه . ألم يكن من الحكمة أن ينتظر هذا الأحمق حتى تجفف أشعة الشمس المياه . ها هو قد تزحلق ومعه قطع الأثاث الثمينة . ياللغبـاء !.

الثالث : لم يتزحلق . لقد راقبته قبل ان يقع ورأيت قطع الأثاث تحجب عنه الرؤية ، واغلب الظن ان قدمه اصطدمت بحجر

كان فى الطريق . ياللحماقة . ان من يختار مهنة لابد أن يجيــد اداءها . لكن هذا البائس لا يجيد التنظيم . ياللغبـــاء !.

الرابع : لقد أصدرنا تعليمات تحرم دخول البهائم الى شارع تحتمس الثالث . لكننا نسينا أن بعض البهائم أكثر ذكاء من هؤلاء . لو وضعوا هذا الأثاث فوق ظهر حمار لأمكنه نقله سليما حتى دار أصحابه . أما هذا الأحمق . ياللغبـــاء !.

كل هــذا والرجل فوق الأرض . لم تمتد يد واحدة لتنحى ما فوقه من أثاث وتعينه على الوقوف . لم يتساءل أحد من المارة ان كان الرجل قد أصيب بجراح أم لا . لم يبد واحد عطفه على المسكين . وصعق الملك الصغير . الا يوجد بين هؤلاء الأثرياء من يرثى لحال البائس . ان سبب الحادث هو كثرة ما كان يحمله من أثاث . ثم ان الرجل اضطر الى هذا ولم يفعله مختارا ، الا يوجد بينهم من يوجه النقد للذين حملوا هذا الرجل فوق ما يستطيع ؟ أهكذا تتحول الضحية الى مذنب ويتحــول المذنب الى ضحية ؟ أهكذا تنقلب المعايير والقيم ؟ أين الشفقة ؟ أين الأخوة الانسانية ؟ ألهذه الدرجة بلغت بلادة الحس ؟.

تقدم الملك نحو الرجل فرفع ما فوقه من قطع الأثاث وساعده على الوقوف ، ثم ســأله عن مكان داره كى يقــوده اليهـــا . لكن كم كانت دهشته عندما أدرك أن الواقفين من أثرياء شـــارع تحتمس الثالث قد رأوا فى شفقته على المسكين استفزازا لهم :

الأول : انها ضائعة من فتيات الليل ، فهن رغم ما يرتكبن من خطيئة يشعرن عادة بالعطف على أمثالهن من الضائعين .

الثانى : يقال ان الثكلى تبحث عن الثكلى ، وهكذا يحس البؤساء بانجذاب نحو غيرهم من البؤساء .

الثالث : مادامت تريد مساعدته فعليها اذن أن تنقل الأثاث من وسط الطريق الى الرصيف . وياحبذا لو قامت بحمله الى دار أصحابه .

الرابع : هذا صحيح . مادامت هذه الحقيرة تشعر بالعطف على هذا الأحمق ، فعليها أن تتحمل جزءا من مسئوليته .

هنا قال الملك :

اننى يا سادة سأترك الأثاث فى مكانه وسط الطريق ، وسأترك لكم مهمة نقله . فان رأيتم فى سلوكى داعيا للشكوى ، أعطيتكم اسمى وعنوانى . ان هذا الرجل أبى وانى لأرجوكم العفو والمغفرة ان لم يكن باستطاعتى الآن اصلاح ما أتلف . وانى لأرجوكم التكرم باعطائى عنوان صاحب الأثاث واسمه وكذا عنوان كل منكم . وانى لأعدكم جميعا بالحضور للخدمة فى دار كل منكم عدة أيام كى أعوض بعملى ما سببه أبى لصاحب الأثاث ولكم جميعا من خسارة وازعاج .

وبدت الدهشة على وجوه الواقفين من أثرياء شارع تحتمس الثالث .

الأول : ان هذه الفتاة تتحدث بأسلوب المثقفين . من أين لها هذه التربية ؟.

الثانى : ان الحل الذى أقترحه لا بأس به . ليعطهـا اذن كل منا عنوانه كى تفى بما وعدت .

الثالث : سنعطيك هذه الفرصة وننقذك من عقاب القانون .

الرابع : اياك الا تفى بوعدك . اننـا قادرون على العثور عليـك ومعاقبتك .

وضـع الملك الورقة التى كتبوا عليها أسماءهم فى جيبـه ثم أمسك بيد حامل الأثاث واتجه به نحو مسكنه الذى كان يقـع خارج أسوار المدينة .

كان الرجل قبيح الوجه ، فقد فقد احدى عينيه وكل أسنانه ما عدا اثنتين فى الفك الأعلى . ورغم عرفانه بما فعل الملك من أجله ، فان وجهه القبيح كان عاجزا عن التعبير عن أى احساس جميـل يدور بداخله .

ترك الملك الرجل أمام داره وعاد وحده نحو المدينة . لكن أفكارا كثيرة كانت تدور بخاطره . أهكذا يفعل الفقر بالانسان ؟ أن هناك تناقضا بين البؤس والجمال ، فهما لا يجتمعان فى انسان واحد . لكن هؤلاء الأثرياء الذين لم يقدموا المساعدة للبائسين — هل كانت وجوههم أقل دمامة من وجهه ؟ ربما ! لكنها على أى حال

هى الأخرى وجوه قبيحة لا تعبر عن اى احساس خير . الخير اذن شرط من شروط الجمــال . لا جمــال بلا خــير . وتوقف الملك عن السير ، فقد أعجبته أفكاره ، فكرر بصوت عال :

البؤس يميت الجمال .
لكن لا جمال ان غاب الخــير .

ثم أضاف :

كى تنمو زهور الحيــاة وتزدهر
لابد من القضــاء على البؤس
ولابد أيضــا من انتشار الخــير .

لكن ضجة كريهة حالت بين الملك والاستمرار فى التفكير .
صياح وعواء ملأ الجو كضباب يحجب الرؤية .
أكلاب تنبح هذه أم هى حقا أصوات بشرية ؟.

ونظر الملك الى الاتجاه الذى أتت منه الضجة القبيحة ، فاذا به يرى معبدا كبيرا من معابد آمون . وسار نحو مدخل المعبد لكن قدمه رفضت فجأة اطاعة ارادته فتوقفت عن السير وتسمرت فى مكانها . رباه ! كنت أظن المعابد ديار أمن وهدوء ، كنت أظنها ديار تأمل فى سر الوجود ، ديار تعمق فى معنى الخلق . لكن ها هى قد تحولت الى ما يشبه الأندية الرياضية . ها هم يقفون متلاصقين

وقد أمسك كل منهم بيد الآخر ، يؤدون حركات غريبة ، فهم ينحنون مرة ثم يعتدلون مرة أخرى صائحين : آمون .. آمون .. آمون .

أصلاة هـذه ! أم قد تحولت الصلاة الى ما يشبه رقصات الزنوج ؟ وكيف يمكن للانسـان أن يتقرب من الخالق خاشعا فى الوقت الذى يقوم فيه بحركات بهلوانية لا تختلف كثيرا عن حركات القـرود .

رباه ! انهـا وجوه لايبدو عليها الايمان ، وهى ان كانت تنطق بشىء ، فبخليط من السذاجة والنفاق . لقد جعلوا من النفاق ايمانا ومن الايمان نفاقا .

ابتعد الملك شـيئا فشيئا عن مدخل المعبـد وقرر أن يقوم بدورة حول أسواره ، فاذا به يرى أمام مدخل خلفى عددا من الحمير محملة بالصـناديق والأكياس ، وقد وقف بجانب كل حمار فلاح فقير . واقترب الملك من الرجال فسمع حديثا عجيبا :

الأول : ان قيمة ما بداخل صندوق واحد من هذه الصناديق قد يكفى أطفالى وامرأتى شهرا كاملا أو أكثر !.

الثانى : ان الايمان بآمون يزداد يوما بعد يوم فى قلوب أهل طيبـة .

الثالث : وما أدراك بذلك ؟.

الرابع : انه على حق . انظر الى كل هـذه الهـدايا التى سيتسلمها الكهنة اليوم ! أليس هذا دليلا على الايمان ؟.

الخامس : خاصة ما جئت أنا به . انها هـــدايا من سيدى أح ــ بو أكبر تاجر بالمدينة .

الأول : حقا ! لقد أرسل سيدك الكثير . لكن ما اتيت أنا به ليس بالقليل . انها هدايا من سيدى بتو ــ تاح ، وان كان سيدك أكبر تاجر فى طيبة ، فسيدى أكبر مقاول .

الثالث : ان سيدى مينا ــ خور ، وان كان من كبار ملاك الأراضى الا أنه يكتفى بارسال هدايا رمزية للمعبد . لقد سمعته مرة يقول ان كبير الكهنة يتلقى منه هـــدايا من نوع آخر ، لكننى لم أفهم ما يقصد .

الرابع : لا فرق بين سيدى وأسيادكم ، انها هدايا من كبار المؤمنين .

الخامس : هذا صحيح ، فلولا ايمانهم لما وهبهم آمون كل هذا الثراء . لكن ثراءهم يزيدهم ايمانا ، فيقدمون المزيد من الهدايا .

الأول : هذه هى مصيبتنا نحن الفقراء . فلو استطعنا تقديم الهدايا ، لحصلنا على رضاء الكهنة ورضـــاء الاله ، ولأصبحنا من الأثرياء .

الثانى : فعلا ! ان أكبر خطيئة يرتكبها الانسان ، هى أن يكون فقـــيرا .

الثالث : لكننا ولدنا فقراء .

الرابع : هذا لا يقلل من ذنبنا . لقد ورثنا الخطيئة من آبائنا فعلينا اذن أن نتقبل اللعنة .

الخامس : اغلقوا أفواهكم ، فباب المدخل قد انفتح .

كان باب المدخل الخلفى قد انفتح فعلا وخرج منه كاهن أشار الى الفلاحين بما معناه أنه يأذن لهم بحمل الهدايا الى داخل المعبد .

ابتعد الملك فى بطء وهدوء دون ان يشعر الفلاحون أو الكاهن بوجوده ، حتى وصل الى ناصية المعبد فانحنى فى سرعة وأخذ طريقه متجها الى سوق المدينة .

ابتعد الملك عن المعبد وأصبح وحده فى طريق منعزل يسوده الهدوء والسلام .

خفت عواء السفهاء وتلاشى نباحهم الكريه الذى يطلق عليه الكهنة اسم الصلاة ، وحاول أمنحتب الرابع أن يتذكر الحقيقة التى كان قد وصل اليها قبل أن قطعت عليه الضجة الكريهة خيط أفكاره . حاول أن يتذكر ما اهتدى اليه وهو يسير وحده وسط الحقول بعد أن قاد حامل الأثاث الى داره .

حامل الأثاث !! هنا تذكر الملك الصغير الحقيقة التى كان قد اكتشفها ، فعاد يكررها مرة أخرى :

البؤس يميت الجمال
ولا جمال ان غاب الخير .

رباه ! أليست الزهور فى حاجة الى الهواء النقى والماء العذب كى تزدهر .. الهـواء والمـاء .. الخـير .

لا جمال بدون الخـير !.

ما أجمل الحقيقة ! لكن ما هى الحقيقة ؟ نعم ما هى الحقيقة ؟ ان امنحتب ابن حابو لم يلقننى تعريفـا واضـحا لما هو الحق . لكن ابن حابو نفسـه كثيرا ما اعترف لى بعجزه عن الاجابة على أسئلة كثيرة . أيجوز لى اذن أن أتوهم فى نفسى القدرة على ايجاد تعريف للحقيقة ؟. لا ! اننى مازلت فى بداية الطريق . ما هى الحقيقة ؟ من يدرى فربما أستطعت يوما ما العثور على اجابة .

نعم ما أجمل الحقيقة ! رباه ! ماذا أقول ؟ الم أقل وأكرر : ما أجمل الحقيقة ؟.

الحقيقة اذن جميـلة ! الجمال اذن من صفات الحقيقة . أليست هذه بداية تعريف ؟.

ان ما رأيته فى المعبد كان قبيحا كريها يؤذى كل احساس . لذلك فهو بعيد عن الحقيقة . لم تكن صلاة هذه ، وانما كذب ، كذب قائم على كذب ، ومن طبيعة الكذب أنه دائما يلد كذبا جديدا .

لكن لماذا يرسل التجار وكبار الملاك الهدايا لكهنة آمون ؟.

وهل تدهورت ديانة آمون حتى وصلت الأمور الى ما وصلت اليه ، فيرى الناس فى فقر الفقراء خطيئة تستحق اللعنة ، وفى ثراء الأثرياء فضيلة يباركها الاله ؟.

نعم لماذا يرسلون الهدايا الى الكهنة ؟.

وبينما يحاول الملك عبثا أن يجد اجابة على هذا السؤال ، اذ به قد دخل الى أروقة السوق وطرقاته دون أن يدرى . ومرة أخرى يستيقظ أمنحتب الرابع من أفكاره ، فان حشـودا كبيرة من الناس قد تجمعت أمام محلات بيع المواد الغذائية ، ورأى الملك السخط قد بدا على الوجوه والناس فى حديث ثائر مع التجار .

اقترب الملك من حانوت يبيـع البيض والدواجن ، لـكن يا للعجب ! لم تكن بالحانوت بيضة واحدة أو دجاجة . أما صاحب الحانوت فقد انهمك فى شجار كلامى مع جمهور الناس .

الرجل الأول : لماذا لا تغلق حانوتك ما دمت لا تريد البيع ؟.

التاجر : كم وددت ذلك ، لكن القانون لا يسمح لى .

رجل ثان : وهل يسمح لك القـانون بالامتنـاع عن شراء البضائع لبيعها للناس ؟.

التاجر : القانون لا يجبرنى على شراء البضائع .

رجل ثالث : بأى منطق تتكلم ؟.

التاجر : هل أنتم على استعداد لدفع ضعف الثمن الذى كنتم تدفعونه فى الأسبوع الماضى ؟.

امرأة : أراك تمزح ! الا يكفيك ما ندفعه حتى الآن ؟.

امرأة ثانية : انى أدفع أجر يوم كامل كى احصل على عشرة بيضـــات .

التاجر : أنتم اذن على غـــير استعداد . لكن ماذا افعـــل اذا كان تجار الجملة والمنتجون يطلبون منى الضعف . لقد رفضت الشراء وقررت عدم البيع . ان حالى مثل حالكم .

رجل رابع : ومن هم تجار الجملة ؟ قل لنا اسماءهم !.

التاجر : ليس هذا من حقى .

امرأة ثالثة : يبدو أن التاجر على حق ، فالمسئولية تقع على المنتجين .

رجل خامس : لكن من هم المنتجون ؟.

امرأة رابعـــة : يقولون ان أكبر منتـــج للبيض والدواجن هو أح ـــ بو .

هنا هدأت الضجة ، وبدأ الناس يتهامسون وقد بدا اليأس على وجوههم .

رجل سادس : وما أدراك انت بهذا ؟ أم هل تحولت نساء الليل الى وكالات للأنبـــاء ؟.

ومرة أخرى بدأ النـــاس يتهامسون ، وسمع الملك احدهم يقول للآخر : « التزم الصمت ، فهذا الرجل جاسوس الكهنة » لكن المرأة عادت للحديث لتقول :

المرأة الرابعـــة : قلت لك ان اكبر منتـــج للبيض والدواجن هو أح ـــ بو . هذه هى الحقيقة . ان كنتم تخافون من الحقيقة ، فهذا شىء . أما كونى داعرة فهذا شىء آخر .

الجاسوس : اغلقى فمك اذن ! واياك والدعاية المغرضة ضد شرفاء المدينة !.

الداعرة : تدعى أنى أكذب ؟ قل لى اذن من هو اكبر منتج للبيض والدواجن ! انظر الى صـــاحب الحـــانوت انه لم يتهمنى بالكذب ، بل التزم الصمت .

الجاسوس : فاجـــرة !.

الداعرة : حقا ! اننى أبيع جسدى كى أطعم أطفالى اليتامى ، بعد أن فشلت فى العثور على عمل . لكننى لا أسرق قوت الناس . اما أح ـــ بو فيعيش فى رفاهية ، بينما تجوع أطفالنا .

الجاسوس : ان السيد أح ـــ بو من كبار المؤمنين يا فاحشة ، فالتزمى الصمت !.

الداعرة : ان الايمان بالأعمال . المؤمن ليس من يقول آمنت بآمون . المؤمن هو من يعطى النـــاس حقوقهـــا . أريد طعـــاما لأطفـــالى !.

الجاسوس : أراك قد تماديت فى سفاهتك .

رجل سابع : انها على حق . امرأة جريئة ، تزيدها جرأتها جمالا على جمالها .

وهنا بدأ بعض الواقفين فى الضحك ، لكن الرجل استمر فى الحديث قائلا :

— أما نحن الرجال ، فقد تحولنا الى كباش وديعة . هذه هى الحقيقة .

وعاد الناس مرة أخرى للضحك ، فقد بدا أن الرجل كان فى حالة سكر .

الجاسوس : ان رائحة الخمر تفوح من فمك . .

السكير يتحالف مع الداعرة لتشويه سمعة المؤمنين والشرفاء .

السكران : لقد شربت فعلا الكثير من النبيذ كى أنسى متاعبى . النبيذ ! لعنة آمون على النبيذ ومن يشربون النبيذ . انى حقا أحمق .

وهنا عاد الناس مرة أخرى للضحك . أما السكران فقد استمر فى الحديث . .

السكران : لعنة آمون على النبيذ ومن يشربون النبيذ . لكن الادمان على الخمر أقل خطرا من الادمان على الصبر . انكم لستم كباشا وديعة فحسب ولكنكم سكارى نائمون .

وعاد الناس للضحك .

السكران : ان الخمر يا سادة تفيقنى من نومى فأرى مأساتنا بكل وضوح . أرى مصيبتنا ثم أفتح فمى لأعبر عن رايى دون خوف .

انجاسوس : من الخير لك أن تغلق فمك !.

أصوات كثيرة : دعه يتكلم ! دعه يتكلم !.

السكران : دعـــه يتكلم ـــ دعه يتكلم ! كأننى جئت بشىء جديد ! انكم يا سادة على علم بكل شىء ، لكنكم تخافون . أح ـــ بو صديق لكبير كهنة آمون . وآمون هو اله الملك وأبيه . لذلك تخافون من ذكر اسمه . هذه هى الحقيقة .

الجاسوس : قلت لك اغلق فمك .

أصوات كثيرة : دعه يتكلم !.

السكران : دعـــه يتـــكلم ! انكم تريدون أن تنفســـوا عما فى صدوركم . لكن خوفكم يمنعكم . لذلك تشعرون بارتياح وسعادة ، عندما أعبر بالنيابة عنكم عما يجيش فى نفوسكم .

شعر الملك الصغير بالأسى وعذاب الضمير .

التجار يرسلون الهدايا للكهنة ، كى تبارك الكهنة أعمالهم وتبيح لهم امتصاص الدماء .

وللكهنـــة جواسيس تراقب الشعب وتســـهر على مصالح أعـــدائه .

والشعب ؟ كباش وديعـــة .

لم يجرؤ على الكلام غير داعرة وسكير .

الخطيئـــة ؟.

ما هى الخطيئة ؟ وما هى الفضيلة ؟.

من هو أشرف ؟ الداعرة والسكير . أم كهنة آمون وكبار المؤمنين ؟.

ان الداعرة لا تسرق قوت الفقراء .

والملك ؟.

انى أقوم دون أن أدرى بدور حقير فى لعبة قذرة .

كبير الكهنة يتقن اللعبة ويوزع الأدوار .

عندما يتحدث معى يقول ان سلطان آمون يرتكز على ايمان شعب طيبة ، فألتزم الصمت احتراما لارادة الشعب .

ثم يتحدث الى الشعب فيقول ان سلطان آمون يرتكز على كونه اله الملك وأبيه ، فيلتزم الشعب الصمت احتراما لى .

يهددنى بسلطة الشعب ويهدد الشعب بسلطانى .

ياسذاجتى ! وياسذاجة الشعب !.

يالدهاء الكهنة ومكرهم !.

وياللعـــار ! فقد اصبحت فى نظر شعبى حليفـــا للكهنـــة والسماسرة وشريكا فى امتصاص الدماء !.

ويفيق الملك مرة أخرى من أفكاره على أصوات الناس :

الأول : ان السكران قد حلل أمورنا بوضوح .

الثانى : انه بلا شك على حق .

الثالث : لقد أصاب مع الأسف فى كل ما قال .

الرابع : فلننصرف الآن فمن يدرى ماذا يحدث .

الخامس : نعم خير لنا أن نعود الى ديارنا .

السادس : ان للكهنة جواسيس فى كل مكان .

الجاسوس : لقد أصبت فيما قلت . فللكهنة فعلا جواسيس فى كل مكان ومن الخير لنا أن نتفرق .

وهنا ارتفع صوت رجل كان قد اكتفى طوال الوقت بالمشاهدة والاستماع ..

الرجل : تريدون الانصراف والعودة الى دياركم ؟ لماذا ؟ وبأى حق ؟ هل انتهيتم الى قرار ؟ هل وصلتم الى حل ؟ هل تعلمتم الجديد ؟ لم تحققوا شيئا ولم تتعلموا شيئا . كلام ونكت وضحك . هذا هو كل ما فعلتم . وهذه هى عادتكم . تصفون أنفسكم بأنكم كباش وديعة ثم تضحكون لهذا الوصف ! ياللعار ! لا لستم كباشا فأنا منكم ولا أظننى كبشا وديعا وانما انسان عزيز النفس ، تعودت أن أرفع رأسى وأقول كلمتى ، رغم أننى كما ترون لا أقل فقرا عن أحدكم .

كان الرجل حافى القدمين يرتدى ثيابا ممزقة ، ورغم عـــدم جمال تقاطيع وجهه فقد كان لهذا الوجه تعبير يحبب النظر اليه ، فأنفه الضخم تعلوه جبهة عريضة ، أما عيناه فلهما نظرات كلها دفء وحيوية ولهما بريق جذاب .

الجاسوس : ألست المعلم الفاشل الذى طرد من الخدمة ؟ كان الأولى بك أن تؤدى عملك على الوجه السليم . بدلا من التباهى هنــــا فى السوق .

المعلم : لقد فقدت عملى فعلا ، لكن لاصرارى على تأدية عملى . هذه هى الأوضاع اليوم . لقد طردت من الخدمة لاصرارى على أن ألقن الأطفال الحقيقة .

الجاسوس : عن أية حقيقة تتكلم ؟ الم تكن تدرس الحساب ؟.

المعلم : نعم كنت أدرس الحساب ، وحاولت أن ألقن الأطفال حقيقة هامة وهى أن ١ + ١ = ٢ وأن ٢ + ٢ = ٤ ، فقامت الادارة بطردى من الخدمة .

واحتار النـــاس فى أمر هـــذا الرجل ، أهو داهية يهزأ ، أم هو معتوه لا يدرى ما يقول .

الجاسوس : انك تقول ما يحلو لك من خرافات .. انظروا الى هـــذا الرجل والى ملابسه الممزقة وتأملوا فى بلاهة أقواله ! هل يريد أحدكم أن يكون مثله معلما لأطفالكم ؟.

المعلم : لقد قلت للأطفال ان الفلاح اذا حصد أربعة قناطير من القمح ، فان من حقه الحصول على أربعـــة قناطير . لا أكثر ولا اقل . فقد حرث الأرض وحـــده وهذا قنطار ، وبذر وحـــده وهذا قنطار ثان ، وسقى الأرض وهذا قنطار ثالث ، ثم قام بحصد القمح وهذا قنطار رابع . وعليه فان ١ + ١ = ٢ و ٢ + ٢ = ٤ وقيمة الانتاج فى هذه الحالة تعادل قيمة العمل . لكن مدير المدرسة عندما علم بهذا ثارت ثورته واتهمنى بالجهـــل . فلما طلبت منه ان يبرر هذا قال لى ان ١ + ١ = صفر وبالتالى فان ٢ + ٢ = صفر .

هنا انفجر الناس ضاحكين ، واستغرقوا طويلا فى الضحك . لقد ادركوا أن المعلم ليس معتوها كما كانوا يظنون . أما الواقفون من الفلاحين فقد اختلفوا فى الرأى وزعم بعضهم أن مدير المدرسة على حق ، وأن ١ + ١ = صفر ، فالفلاح يحرث ويبذر ويسقى ويحصد ولا يحصل فى النهاية على اى شىء .

الجاسوس : الم اقل لك ان الادارة كانت على حق عندما قررت طردك من الخـــدمة . ما عـــلاقة كل هـــذه الثرثرة بمادة الحساب ؟.

السكران : ١ + ١ = صفر وعليـــه فان ٢ + ٢ = صفر . الآن بدأت أفهم كل شىء .

المعلم : فلنترك أسباب طردى من الخدمة . انى أريد الحديث عن ظاهرة الخوف وهى ظاهرة لها علاقة بالأرقام . ظاهرة غريبة ليس لوجودها فى رأيى أى مبرر . اتسمحون لى أن أوضـــح لكم هـــذا .

الداعرة : انى فعلا كثيرا ما أشعر بالخوف دون أن أدرى لماذا ، فليس عندى اى شيء يمكن أن افقده غير حياتى ، ويالهـا من حيـاة !.

السكران : ١ + ١ = صفر وعليه فان ٢ + ٢ = صفر . أخـيرا وجدنا فيلسوفا يلقننا ما لا نفهم تقولون أن ثيابه ممزقة ؟ هذا أمر طبيعى ، طبيعى جدا . من الطبيعى أن تكون ثياب مثل هذا الرجل ممزقة .

المعلم : ان الشعب ينقسم الى مجموعتين : الأولى تستهلك كل شيء دون أن تنتج شيئا . والثانية تنتج كل شيء دون أن تستهلك شـيئا . فهـل يمكن للمجموعة الأولى الاستغناء عن المجموعة الثانية ؟.

صوت : لا طبعـا !.

صوت ثان : ما دامت المجموعة الأولى تستهلك والثانيـة تنتج ، فالأولى فى حاجة الى الثانية .

المعلم : بقاء المجموعة الثانية من مصلحة المجموعة الأولى .. أليس كذلك ؟.

صوت : طبعـا !.

صوت ثان : هناك مثل يقول : « لا تقتل الدجاجة التى تضع لك كل يوم بيضة ذهبية » .

المعلم : أما بقاء المجموعة الأولى .

صوت : ليس من مصلحة المجموعة الثانية . هذا واضح .

الجاسوس : من هم أعضاء المجموعة الأولى ؟ تكلم بوضوح !.

المعلم : كل الطفيليين . كل الذين لا يشتركون فى الانتاج ، لا برؤوسهم ولا بسواعدهم .

الجاسوس : تكلم بوضوح !.

المعلم : الجواسيس وأسيادهم من كهنة وموظفين ، من سماسرة ومستغلين .

السكران : والنتيجة يا أستاذ ؟ انى أحب النتائج الواضحة الملموسة ، مثل ١ + ١ = صفر و ٢ + ٢ = صفر وبالتالى ٤ + ٤ = صفر .

المعلم : النتيجة هى أن أى صراع بيننا وبينهم لابد أن ينتهى بانتصارنا اذا صمدنا حتى النهاية .

صوت : لكن للكهنة عصابات مسلحة احتكرت لنفسها حق حمل السلاح .

المعلم : قوتنا هى الانتاج ، بدون رؤوسنا وسواعدنا سيموتون جوعا .

صوت ثان : وما معنى كل هذا ؟.

المعلم : اذا اقتنع الكهنــة والملك وكبار الملاك والسماسرة بوحدتنا واصرارنا فليس أمامهم غير أن يختاروا : اما القضاء علينا واما الاستجابة لمطالبنا .

تعجب الملك لمنطق هــذا الرجــل . ان أمنحتب ابن حابو لم يكن اذن الفيلسوف الوحيد فى هذا الشعب . ان هذا الرجل الحافى القدمين ، الممزق الثياب هو فيلسوف آخر . يالعمق كلماته وخطورتها رغم بساطتها ووضوحها ! يطردون مثل هــذا الرجل من خدمة التعليم ! يتركون رجلا مثل هــذا يتجول فى السوق ، بدلا من أن يلقن الشباب الحكمة !.

صوت ثالث : ان هذا الرجل فى غاية الذكاء .

الســكران : المســألة ليست فى حاجــة الى الذكاء . ١ + ١ = ٢ وبالتــالى ٢ + ٢ = ٤ . لقد كنت الجأ الى النبيــذ كى أفيق من غيبوبتى ، لكننى أصبحت الآن أخاف من يقظتى .

صوت رابع : كلام المعلم غريب ، لكنه واضح مقنع .

صوت خامس : كهنة آمون يقتربون ووراءهم عصــاباتهم المسلحة .

أصوات كثيرة متداخلة : فلنبتعــد ! فلنذهب الى ديارنا ! من الخير أن ننتظر اللحظة المناسبة ! ان عددهم كبير !.

تفرق النـــاس فى سرعة ، اختفوا فى الحوارى والأزقة ، ولم يبق غير المعلم وكهل ذى لحية بيضاء ، والملك يراقبهما .

المعـــلم : افعلوا ما تريدون ، اما انا فـــلا احب الهروب ، سأواجه الكهنة وحدى .

الكهـــل : كنت أظنك حكيما ، ولكن ها انت تخيب ظنى !.

المعـــلم : كيف هـــذا ؟.

الكهـــل : ليس من حقك أن تكون بطلا !.

المعـــلم : أريد الصمود والدفاع عن كرامتى !.

الكهـــل : كرامتك لا أهمية لهـــا !.

المعـــلم : ماذا تقول يا أبتاه !.

الكهـــل : لمن وهب الحكمة واجب واحـــد ، وهو أن يعطى الحكمة . لقد علمتنا اليوم ما لم نكن نعلم . لكن هـــل علمتنا كل ما عندك من حكمة ؟ ان ما عندك من أفكار هو أمانة فى عنقـــك . قل لنا أولا كل ما تعرف ، ثم افعل بعد ذلك ما شئت .

وكان الكهنـــة قد اقتربوا ، فجذب الكهـــل المعـــلم من يده واسرع به الى حارة ضيقة .

تتبعهما الملك بنظره ، ثم استدار ليواجه الكهنة .

قائد عصابة الكهنة : لقد فر الصعاليك ، ولم تبق غير هذه الضائعة .

هنا ظهر الجاسوس فجأة ليقول :

الجاسوس : انها على ما اظن صماء بكماء ، فلم تنطق بحرف واحد طوال الوقت ، ولا أظن أنها قد فهمت شيئا مما حدث .

قائد عصابة الكهنة : هى اذن بريئة .

الجاسوس : هذا اكيد . لا علاقة لها باى شىء .

قائد عصابة الكهنة : شىء غريب حقا . انى على يقين بأننى رأيت وجه هذه الفتاة من قبل .

الجاسوس : أما أنا فأعترف بأن هذه هى أول مرة أراها ، رغم أننى كما تعلمون أعرف كل وجه فى طيبة .

قائد عصابة الكهنة : شىء غريب حقا . ان بين وجهها ووجه آخر أعرفه شبها كبيرا .

الجاسوس : وجـــه من ؟.

قائد العصابة : لننصرف الآن وليبدأ رجالنا فورا فى البحث عن الخونة والسفهاء فى ديارهم ، فلكل منهم حساب .

وقف الملك لحظة وحده أمام الحوانيت المغلقة وسط ميدان

قد خلا تماما من الناس ، قبل أن يتجه الى خارج المدينة ، ليأخذ طريقه بين الحقول الساكنة عائدا الى القصر .

أولئك هم اذن كهنة آمون ، وتلك هى عصاباتهم المسلحة . ذلك هو اذن نظام السيطرة الذى أقاموه على الارهاب . أديانة هــذه أم عمــل تجارى لا يعرف قانونا ولا يخضع لرقابة ، هدفه الاستغلال وذر الرماد فى عيون أبناء الشعب !.

لكن الشعب !! الشعب أكثر ذكاء مما يظن الكهنة . . كلمات الشعب تدق كالأجراس وسط الحقول الهادئة . . والملك يتذكرها ويكررها . هذا الكهل ذو اللحية البيضاء الذى أضاف الى حكمة المعلم حكمة جديدة . يالهــا من كلمات قاطعة لا تعرف الزيف . على من يملك المعرفة أن يصونهــا حتى تصــل كاملة لشعبه . هذا هو واجب من يملك العلم ولا واجب له غيره . هى اذن رسالة تفقد ازاءها كل القيم والمعايير معناها . لا حديث هنــا عن عزة أو مذلة ، ولا مدلول هنا لكلمات مثل الشجاعة أو الخوف . بطولة العالم هى ايصال العلم . علاقة صاحب العلم بالعلم هى علاقة الأم بالطفل . أين للشيخ بهذه الرؤية الواضحة التى لا تدع مجالا لحماس زائف أو تسرع أهوج ؟.

والمعلم ! ياله من ذكاء حاد وسخرية لاذعة ! ١ + ١ = صفر وبالتالى فان ٢ + ٢ = صفر . لقــد كرر الرجل كلمات أعدائه كى يسخر منهم ويفضح منطقهم الأعوج . لكنه استطاع فى نفس

الوقت أن يلخص للكادحين حياتهم ، فى كلمات قليلة ، حركت الناس وأثارت سخطهم على من يتسلطون عليهم .

والداعرة والسكير ! وهــذه الأصــوات وتلك الأسئلة ! لقد حولوا السوق فى لحظات قليلة الى جامعة تدرس فيها أخطر الأمور بأبسط الكلمات .

ألم أقل أنى خارج للصيد ؟.
ها أنا قد رميت شباكى الى أعماق شعبى .
فيالهـــا من غنيمة .
ويا لى من صياد سعيد .

من يبحث عن الالهام لابد أن يغادر الصوامع .
لقد خرجت الى الشعب .
فلم يبخـــل على .

لا وساطة بينى وبين الشعب بعد اليوم .
ولا وساطة بينى وبين الاله .

سأجرد الكهنة مما لهم من نفوذ .
فهم بعـــد اليوم ليسوا وسطاء .

٣ — الخـــالق

كانت نفروتيتى أثناء غياب الملك فى قلق شديد ، لم تنم طوال الليل ، وما كادت عند طلوع الفجر تسمع تغريد الطيور حتى قامت من فراشـــها واتجهت الى الشرفة كى تترقب شروق الشمس . لكنها فى حالة من التوتر تجعلها لا تستطيع البقاء فى مكان واحـــد غير لحظات قليلة ، فتغادر الشرفة مرة أخرى وتنزل الى حدائق القصر ، تتجول وحدها فى اتجاه النهر ، عسى أن تعيد رؤية المياه الى نفسها شيئا من الهدوء .

وكانت تى ــ يا ، الملكة الأم ، قد أمرت بارسال واحـــد من خيرة ضباط الحرس يتتبع الملك عن بعد دون أن يتنبه الملك لوجوده ، وذلك لحمايته من أى خطر قد يتعرض له . لكن نفروتيتى عارضت تى ــ يا وأصرت على أن تحترم ارادة الملك . وها هى تنـــدم على ما فعلت . فأين هو الآن ؟ وماذا يحـــدق به يا ترى من أخطار ؟ ان هذه هى أول مرة يخرج فيها للصيد . نعم لقـــد أخطأت عندما عارضت تى ــ يا وأخذت على عاتقها مسئولية أثقل مما تتحمـــل .

لكن هل خرج الملك للصيد حقا ؟ انها تشك فى هذا . الم يهزأ أكثر من مرة أمامها من الذين يجدون فى قتـــل الحيوانات رياضة وتسلية ؟ لكن ان لم يكن للصيد فلأى هـــدف اذن غادر القصر ؟

لقد كان يتحدث مع أمه عن ضرورة القيام باصلاح دينى شامل . فاذا به يعلن فجأة عن رغبته فى الخروج وحده . هناك اذن علاقة بين هذه الرغبة المفاجئة وفكرة الاصلاح الدينى . نفروتيتى تحاول أثناء جلوسها على شاطىء النهر وفى سيرها خلال الحديقة ايجاد هذه العلاقة . نعم هى بلا شك فكرة الاصلاح الدينى التى دفعت الملك الى مغادرة القصر .. ضرورة اصلاح ديانة آمون .. نعم آمـــون وآتوم .. نون ونوت .. خارختـــه وحاتور .. ايزيس وابيس وبوخيس وأوزيريس و .. و .. و .. لعنـــة آمون على كل هذه الآلهة ، بل لعنة كل هذه الآلهة على آمون . لقد كانت بميتانى آلاف الآلهة ، لكن بمصر أيضا المئات والأمر لا يختلف ان كان عدد الآلهة آلافا أم مئات . وأى آلهة هـــذه التى يجعلون منها ملكية خاصـــة ورموزا للمقاطعات ، فلكل قوم اله يعتز به ويحرم على الآخرين عبادته . أتنعكس الأمور فيخلق البشر الآلهة ، يخترعونها ويبتدعونها ثم يحتكرون ملكيتها ؟ وهل يعقل أن تؤمن أثناء طفولتها ببال اله ميتانى ، فاذا أتت الى مصر تستبدل عقيدتها بعقيدة اخرى ، وكأن الآلهـــة شأنهـــا شأن الثياب والطعام ، نغير ونبدل فيهـــا بما يتناسب مع الزمان والمكان ؟.

لقد سمعت مرة اباها يقول لأمها انه فى الحقيقة لا يؤمن بالاله بال ، وانما يميل الى الايمان بفكرة رائعة ، كان أجداده او اجداد أجداده يؤمنون بها . وهى أن لهذه الأرض وما عليها خالقا واحدا ، وأن هذا الخالق وحده جدير بالعبادة . لكنها سمعته ايضا يقول أن هذه الفكرة قد اندثرت مع مرور السنين وانه اهتدى اليهـــا

مصادفة عندما قرأ ما نقشه القدماء على ألواح الحجارة ، وأنه يظن أن نبى هذه الفكرة كان ملكا يدعى ابراهيم .

هكذا أمضت الملكة يومها تنظر طويلا الى النهر كأنها تريد أن تصل الى ما فى أعماقه من أسرار ، ثم تعود الى الحديقة كى تطيل الوقوف أمام شجرة قيل لها أن عمرها مائتا عام أو أكثر . تتأمل فى اعجاب جذعها الضخم المتين ، متسائلة الى أى عمق والى أى بعد تمتد جذورها ، ثم تستأنف السير ، فاذا ملته أسرعت الى القصر كى تطلب لفافة من أوراق البردى تسطر عليها كلمات سريعة ، لكنها ما تلبث أن تغادر القصر مرة أخرى عائدة الى الحديقة . ومن خلال الحديقة نحو النهر ، حائرة بين أفكار وذكريات ، باحثة فى الماضى عن اجابة تنير الحاضر وتمهد لها وللملك طريق المستقبل . فالمستقبل — هكذا كان يقول أبوها — فى قبضة الماضى .

وما زالت على هذا الحال ، حتى رأت خادما يقترب من بعيد ، فصاحت به :

— هل عاد الملك ؟.

— نعم يا مولاتى . وهو متلهف لرؤيتك .

— واين هو ؟.

— ينتظرك بجناحه الخاص .

أسرعت نفرتيتى الى الملك ، وكعادتها كلما التقت به خارج قاعة العرش ارتمت بين ذراعيه .

فضمها اليه فى لهفة وحنان .

نفروتيتى : حدثنى عن رحلتك ! أين هى غنائم الصيد ؟.

أمنحتب : اصطدت افكارا .

نفروتيتى : أفكار ؟ لم لا ؟ سأكون لك شاكرة ان أخبرتنى بمكان تلك الصحارى التى تعدو فيها الأفكار كالغزلان ، فأخرج بدورى للصيد . ما رأيك ؟.

ابتسم امنحتب ، ثم عاد يعانقها فى حنين لا يوصف ، وكأنه لم يرها سنين طويلة .

نفروتيتى : حدثنى عن فكرة من هذه الأفكار !.

أمنحتب : أولهـا أن أعانقك وأن نبقى هكذا ليـلة كاملة ، وألا أحدثك عن فكرة أخرى قبل الغد .

نفروتيتى : لا تمزح !.

أمنحتب : جميلة أنت . كم أحبك .

نفروتيتى : وكم احبـك . لكنى لا أزيد جمالا عن غـيرى من النسـاء .

أمنحتب : بل أنت أجمل امرأة رأيتها . تجسدت فيك فكرة الجمال فتحولت الى حقيقة اسمها نفروتيتى .

نفروتيتى : لا تفـال !.

أمنحتب : بل انى على يقين من أن ملايين الملايين من بعدنا سيرددون ما أقول كلما رأوا صورتك . فأنت حتى الأبد أجمل امرأة فى تاريخ البشرية .

نفروتيتى : لا تغـــال !.

أمنحتب : انى اعبد خالقك .

هنا تحولت نفروتيتى الى شعلة متقدة . يقول انه يعبـــد خالقى ؟ أبهذه السرعة وتلك البساطة يهتدى وحده الى فكرة عبادة الخالق التى كان أبى يتحدث عنها ؟ وكيف ؟ جمالى أنا ؟ لكن لم لا ؟ ألم يقل أبى أن الوسيلة الوحيدة للايمان بالخالق هى أن نتأمل معجزة الخلق ؟ ألست جزءا من هذه المعجزة ؟.

نفروتيتى : ماذا قلت ؟.

أمنحتب : أعبد خالقك .

نفروتيتى : وانى أعبد خالقك .

ويتحول الحب الى عبادة ، ويلتقى نهر الأحاسيس الجارف بتيار الأفكار فى فيضان رائع ، فيالها من صلاة !.

٤ ــ العــــدل

كان الملك بعد عودته للقصر وقبل لقائه بزوجته قد أصدر أمرا الى رجال الحرس بالبحث فورا عن المعلم والكهل والداعرة واحضارهم الى القصر ، فلما وصلوا طلب الملك دعوة المعلم .

الملك : أراك ثائرا على الأوضـاع !.

المعلم : وهل الأوضـاع تسمح بغير الثورة ؟.

الملك : وأراك تدرك أسباب شقاء الشعب !.

المعلم : ليس هــذا بالأمر العسير .

الملك : ألا ترى أننا نزداد عددا بينما يقــل انتاجنا حجما ، وألا ترى أن هذا هو السر فى ارتفاع الأســعار ، فالعرض قليل والطلب كثير ؟.

المعلم : لزيادة عددنا المستمرة اســباب ولنقص الانتــاج أسباب أيضا . هذه أمور لا أنظر اليها على أنها أحكام من القدر .

الملك : التغيير فى حاجة الى وقت والى ارادة من الجميع .

المعلم : حتى يتم التغيير لابد من وضــع حــد للسرقة ولابد من العــدل فى التوزيع .

الملك : لقد استمعت اليك وانت تتحدث الى الناس فى السوق ظهر اليوم . وأظنك تدرك جيدا أنى لا أريد حربا اهلية .

المعلم : يجب عندئذ فى حزم وصـــدق محاكمـــة المستغلين من لصوص وسماسرة ليكون فى ذلك مثلا لغيرهم . كما يجب أيضا حل العصابات المسلحة التى كونها الكهنة لحماية مصالح اعـــداء الشعب مستترين فى هذا بستار الدين .

الملك : حسنا ! سأضع كل هؤلاء أمامك غدا فى قفص الاتهام . فهل انت على استعداد لتمثل الملك والشعب وتقوم بدور المدعى العـــــام ؟.

المعلم : من هم القضـــاة ؟.

الملك : انى أريد اجـــراء محاكمـــة ، ولا أريد عرض تمثيلية هزلية . القضاة ليسوا من بين أعداء الشعب .

المعلم : مولاى ! من هم القضاة ؟.

الملك : اذن فانتظر !.

أمر الملك باحضار الكهل ، فتقدم الرجل العملاق ذو اللحية الكثيفة مستندا على عصا أكثر منه طولا ، قد أمسك بها من وسطها ، فلما أصبح على مسافة قصيرة من الملك ، انحنى قليـــلا قائلا : مولاى !؟.

الملك : اجلس يا أبتاه !.

الكهل : فى حضوركم يا مولاى ؟.

الملك : اجلس يا أبتاه !.

الكهل : مــولاى ؟.

الملك : أمن حق الملك أن يلهو ؟.

الكهل : على ألا يكون فى اللهو عبث بمصالح الشعب .

الملك : أى الفضائل أسماها ؟.

الكهل : فى أى موقف تعنى يا مولاى ؟.

هنا أدرك الملك أنه لم يعبر بدقة عما يريد ، وكان يمقت ذلك ، فصمت لحظة ثم قال :

الملك : فى علاقتى بشعبى .

الكهل : العــــدل .

الملك : يقال أن الرذيلة اغراء ، أما الفضيلة فعبء ثقيل .

الكهل : هــذا صحيح !.

الملك : لذلك أردت الحديث معك يا أبتاه . فالعدل يغرينى ، ولى فيه متعة ولذة . وانى لأبغيه كما أبغى الماء عنــد عطشى . أبغى العدل كما نبغى الهواء ، كما تبتغى المرأة الرجل وكما يبتغى الرجل المرأة . وانى أبحث فى تحقيق العدل لا عن العدل نفسه ، وانما عن ارضاء ما يشبه الغريزة . فهل من حقى عندئذ أن أتحدث عن الفضيلة ؟.

الكهل : عندئذ فقط يا مولاى . فنحن كثيرا ما نغير المبادىء ، لأننا نتعلمها ، نقرؤها أو نسمعها . لكننا لا نغير الهوى والنزعات ، فهى فينا وجزء منا ، بل ويقال أن تغيير انسان لنزعة من نزعاته ينذر باقتراب موته . فان كانت أسمى الفضائل غريزة من غرائزك فما أسعدنا بك . لكنك قد تلقى عناء شديدا .

الملك : هل أتمادى فى اللهو عندما أجعل من داعرة قاضية فى أمر خطير ؟.

الكهل : هل لهذه السيدة من يقظة الضمير والذكاء ما يسمح لهـا بأداء هذا الواجب ؟.

الملك : اظن ذلك .

الكهل : واظنك تجد متعة ولذة فى أن تجعل منها قاضية فوق الذين تعودوا أن ينظروا اليها كخاطئة مذنبة . وهـذا ما تسميه لهـوا ؟.

الملك : اصبت .

الكهل : لقد كان القدماء يتحدثون أحيانا عن « اللهو المقدس » ولم أكن أفهم ما يقصدون .

الملك : ماذا تعنى ؟.

الكهل : مولاى ! ان المجتمع الداعر هـو الذى يحـول الى داعرة من خلقت مثل غيرها بريئة طاهرة . فامض فيما عزمت عليـه .

الملك : لا مانع اذن لديك من أن تكون أنت نفسك خلال المحاكمة مستشارا لها ، فلا أظن أن السيدة تو ــ با رغم يقظة ضميرها وذكائها على علم بدقائق القانون .

الكهل : عفــوا مولاى ! من هم المتهمــون وماذا ارتكبوا من جــرائم ؟.

الملك : لقد رأيت جرائمهم بنفسك ظهر اليوم بالسوق .

هنــا نظر الكهــل الى المعلم متسائلا عن السر فى حضوره فقال الملك مشيرا الى هذا الأخير :

الملك : أبتاه ! لدى المدعى العام كافة المعلومات فتحدث معه وأخبر السيدة تو ــ با برغبتى كى تستعد بدورها ، فقد قررت أن تجرى المحاكمة صباح الغد بالقصر وفى حضورى ، وقد أمرت بالقــاء القبض على المتهمين والتحفظ عليهــم حتى الصــباح . انى لا أحب أن يمضى بين وقوع الجريمة وايقاع العقــاب وقت طويل . هل اقتنع المدعى العام بأن القضاة ليسوا من اعــداء الشعب ؟.

المعلم : لقد اقتنعت وعفوا لما أبديته من اصرار .

هنا أنهى الملك المقابلة قائلا : شكرا لكما !.

ثم كرر شكره للكهل : شكرا يا أبتاه !.

٥ — محاكمة الكهنة

كانت قد مضت على المحاكمة واصدار الحكم شهور كثيرة ، لكنها ما زالت حديث الشعب صباحا ومساء . ثم ان شعراء الشعب كانوا قد وجدوا فى هذه القضية مادة خصبة ، الهبت خيالهم ، فأصبحوا يصفونها فى اناشيد وملاحم طويلة ، يقومون بغنائها امسية بعد امسية ، هذا على انغام الربابة ، وذلك على انغام الناى ، كل شاعر وحوله جمهوره ، فى الميادين والأزقة ، والناس سكارى ، لا يملون الاستماع ، كلما أطالوا الانصات طلبوا المزيد .

وكانت السيدة تو — با التى عينها الملك قاضية قد تحولت خلال هذه الشهور الى قديسة استولت على أفئدة الناس ، وأصبحت موضع حبهم ، ينحنون اجلالا عندما يرونها قادمة من بعيد ، بينما لا يعيرون اهتماما لأى كاهن مهما بلغت درجته .

اما المعلم ، الذى كان الملك قد عينه مدعيا عاما ، فهو وان لم يتحول الى قديس ، فقد أصبح موضع الاعجاب والاحترام ، بل وأطلق عليه بعض الشعراء لقب « حسام العدل القاطع » .

غير أن المنية كانت قد عاجلت الكهل الحكيم بعد انتهاء المحاكمة بأيام قليلة ، فتحولت جنازته الى مظاهرة كبرى خرج فيها شعب طيبة بأكمله وكله اجلال وخشوع .

ومن زار طيبة فى تلك الأيام ظن أنه فى مدينة جديدة وسط شعب جديد ، فقد انتهت اللامبالاة ، وأخرج اللهو المقدس الشعب من يأسه ورسم له — ولو بعيدا عن الأفق — أملا جديدا ، فأصبحت الناس فى يقظة وترقب .

فكيف تمت هذه المحاكمة ؟.

وماذا كان حكم القاضية ، التى كانوا يصفونها بالداعرة ، فأصبحوا ينظرون اليها كقديسة ؟.

لقد أراد الملك الصغير — على حد قوله — أن يلهو ، أراد — على حد تعبيره — أن يرضى غريزة من غرائزه ، فاذا به يحدث ثورة دون أن يدرى .

نعم كيف تمت هذه المحاكمة ؟.

لقد تعددت الأقوال واختلط الكلام فى قصائد الشعراء ، فليس من عادة من يروى أن يلتزم الحقيقة ، بل هو عادة يروى ليرضى نفسه والمستمعين ، فيضيف الى الحقائق هنا ويحذف منها هناك ، ويخلق للواقع صورة ، ليست هى الواقع حقا ، وانما الواقع كما يبتغيه الراوى . لذا علينا أن نلجأ الى الوثائق وننقل الوصف كما هو ثابت بمحاضر الجلسة ، التى سجلت فى لفافات طويلة من أوراق البردى .

ما كادت السيدة تو — با تفتتح الجلسة ، حتى تأكدت أولا من حضور المتهمين والشهود ، ثم القت كلمة قصيرة قالت فيها

ان تجاربها فى الحياة قد علمتها أن الانسان يميل عادة الى تبرئة نفسه ، وذلك بغية اراحة النفس والضمير ، فيضلل الناس حينا ويغالط نفسه ويخادعها حينا آخر ، ولا يتقبل الحقيقة الا ان كانت فى صالحه . وأضافت أن بعض القضاة يلجأون الى تعذيب المتهمين لارغامهم على الاعتراف ، لكنها لا تؤمن بشرعية هذه الوسيلة ، بل ولا ترى ضرورة لاستخدامها ، فقد لاحظت أن قدرة الانسان على الكذب وهو مرهق متوتر أقل بكثير منها وهو هادىء مستريح لذا فهى تأمر الجميع بالوقوف والبقاء واقفين طيلة استمرار المحاكمة ، باستثناء أمنحتب الرابع ونفروتيتى وتى — يا ، فهم ليسوا أطرافا فى النزاع . ثم نبهت الجميع الى أن كل محاولة للكذب والتضليل ستؤدى بالضرورة الى استمرار المحاكمة وقتا أطول . فتستغرق مثلا أياما بدلا من ساعات قليلة ، مع بقاء الجميع واقفين ليلا ونهارا تحت رقابة رجال الحرس . وختمت كلمتها بأن أمرت هؤلاء بحمل كافة المقاعد الى خارج القاعة . عندئذ فقط أذنت للمدعى العام بالحديث فقال :

« سيدتى رئيسة المحكمة ، سيدى المستشار — منذ سنين ونحن نلاحظ انتشار وباء فى بلادنا هو فى الواقع أشد خطرا من أمراض الكبد والروماتزم التى يعانى منها هنا الكثيرون . هذا الوباء هو مرض بلادة الحس . فبينما يشل الروماتزم العضلات ويجعلها غير قادرة على الحركة ، تشل بلادة الحس خلايا الفكر والشعور ، وتحول بين ضحيتها وابداء أى رد فعل على ما يحدث من حوله . يرى بؤس البؤساء فيدير وجهه ، يصل بكاء الجوعى

الى أذنيه فيتظاهر بعـــدم السمع . فاذا تقدم به المرض أصبح فى غير حاجة الى اغلاق عينيه أو صم أذنيه ، فهى عيون لا ترى وآذان لا تسمع . وتتدهور حالة المريض أكثر فأكثر فاذا به لا ينظر الى الظلم على أنه ظلم ، وانما شىء عادى وطبيعى بل وضرورى . وتزداد فداحـــة المرض فنرى المريض يمارس هو نفسه الظلم فيستغل غــيره من البشر وينتهك كرامتهم ويعتبر هـــذا حقـــا من حقوقه ، وعندما تموت كل خلايا الحس والآدميـــة فى المريض ينظر الى ضحاياه على أنهم نوع دنىء من البشر ، غير جديرين أن يعاملوا معاملة الانسان . والمتهمون الذين تجرى محاكمتهم اليوم هم مرضى أصيبوا بداء بلادة الحس . لذا أطالب بأن تكون عقوبتهم أولا وقبل كل شىء علاجا لهم ولأمثالهم ممن أصيبوا بنفس البلاء .

سيدتى رئيسة المحكمة ، سيدى المستشار — لقد أصبحت بلادة الحس مشكلة جوهرية فى مجتمعنا ، بل هى سبب رئيسى وملخص للعديد من مشاكلنا . فهى مرض له مثل غيره من الأمراض أنواع مختلفـــة ، لكل منهـــا أعراضه الخاصة به . وقد حدثتكم عن نوع منها أصيبت به الأقلية ذات الجاه والسلطان . لكن نوعا آخر قد انتشر فى البلاد بصورة مخيفـــة ، فأصيبت به الأغلبية العظمى . والصفة التى تجمع بين ما أصيبت به الأقلية وما أصيبت به الأغلبيـــة هى ظاهرة عـــدم احترام كرامة الغـــير . انظروا الى الناس تقذف بالزبالة والقاذورات الى الأزقة والشـــوارع دون احترام لغيرهم ممن يستخدمون هـــذه الطرق التى هى ملك للجميع . انظروا الى النـــاس كيف يعامل بعضهم البعض وسط

الزحام وخارج الزحام ثم استمعوا الى الصيحات التى تنبعث اثناء الليل من كل اتجاه منبهة الناس الى أن هناك ما هو أهم من النوم ، والويل كل الويل لمن يجرؤ على القول بأنه فى حاجة الى النوم كى يستطيع العمل . استمعوا الى هذا الخليط من موسيقى وغناء وضحك وعواء ، ينبعث عاليـــا من كل طاقة ونافذة فيمكر على النــــاس ما هم فى حاجة اليه من أمن وهدوء . ضجة كريهة عند زواج الأبناء والبنات ، ضجة عنـــد ختان الصبيان ، ضجة عندما يتشاجرون وضجة عندما يتصالحون وضجة عنـــدما يتسامرون وضجة عندما يموتون ، وهم يبتدعون الأعذار يبررون بها ما يفعلون ، فيتحدثون حينا عن الدين وتعاليمه وحينـــا آخر عن العـــادات والتقاليد ، والحقيقة أن الدين برىء منهم ، فهو يدعو الى الأمن والســـلام ولا يحض على ارهاب الناس أثناء الليل بدون مبرر منطقى أو نتيجة ملموسة ، ارهاب من أجل الارهاب . أما التقاليـــد والعـــادات فقد خلقت هى الأخرى لصيانة السلام الاجتماعى وضمان الاحترام المتبادل بين الأفراد ، ولم تخلق لكى يحول كل فرد حيـــاة الآخر الى جحيم لا يطاق » .

هنا قاطعت السيدة تو ـــ با المعلم منبهة اياه الى ضرورة الدخول فى صميم الموضوع وظهرت الابتسامة الصفراء على وجوه الكهنة وأصدقائهم ، بينما بدا شىء من الدهشة على وجه المعلم ، الذى حاول جاهدا أن يكبت انفعاله . لكنه ما لبث أن عاد للحديث قائلا فى هدوء :

« لقد أردت أن أصف للمحكمة ما انتهت بنا اليه بلادة الحس لدى الاقلية . فعندما اعطيت لهـا الحرية ان تفعل ما تشاء ، أساءت استخدام هذه الحرية مما أدى الى انتشار عدم المبالاة بين الناس . وعدم المبالاة ظاهرة ترتبط ارتباطا وثيقا ببلادة الحس وكلاهما مصدر للفوضى الاجتماعية السائدة .

سيدتى الرئيسة ، سيدى المستشار — ان أمامكم اليوم مجموعة من الأشخاص ارتكبوا جرائم مختلفة ضد الملك والشعب ، وانى أبدأ بالسيد أح — بو المتهم الرئيسى وهو كما تعلمون محتكر انتاج البيض والدجاج فى طيبة ، وقد أصبح اسمه رمزا للفساد فى البلاد ، رمزا لكل ما يحدث من سرقة ونهب لأموال الشعب والدولة . لقد قام السيد أح — بو برفع الأسعار بصورة جعلت الناس غير قادرة على الشراء ، لكن عدم القدرة على شراء القوت معناه الجوع . والجوع يفقد الانسان آدميته ويحوله الى كائن قد انحصر كل تفكيره فى ايجاد شىء يأكله . هو قد يلجأ اذن الى الجريمة ، لا الى السرقة والنهب وقطع الطرق فحسب ، بل قد يصل به الحال أحيانا الى أن يأكل لحم الموتى من البشر كى يبقى على قيد الحياة .

لقد كثر الحديث فى السنين الأخيرة عن الأمن الداخلى ، لكننا نتناسى أن الجوع هو أكبر خطر يهدد الأمن الداخلى ، وأن القضاء عليه هو خير ضمان لاستقرار هذا الأمن . ان السيد أح — بو وأمثاله من كبار التجار هم الذين يهددون الأمن الداخلى عندما يرفعون الأسعار فينتشر الجوع . ومن الغريب حقا

أن الشعب لم يلجأ حتى الآن الى الجريمة ، فقد تعود مع الأسف على تحمل المآسى فى صبر . الذين لجأوا الى الجريمة هم الكهنة ، وذلك بغية حماية مصالح صديقهم أح — بو . يجيعون الشعب، ثم يقومون بارهابه كى لا يرفع صوته .

سيدتى الرئيسة ، سيدى المستشار — لقد تمادى الكهنة فى ولائهم لأعداء الشعب فكونوا عصابات ارهابية مسلحة ، وقائد هذه العصابات وأعوانه الماثلون أمامكم الآن فى أزيائهم الدينية قد حاولوا اذن تكوين دولة داخل الدولة ، لذا أطالب المحكمة بمعاقبتهم بما ينص عليه القانون فى حالة ارتكاب جريمة الخيانة العظمى .

ان جريمة السيد أح — بو ، وأقصد اجاعة الشعب وخلق جو من التوتر يهدد الأمن الداخلى ، مرتبطة بلا شك بالنظام الاقتصادى ، أو على الأصح بالفوضى الاقتصادية القائمة بالبلاد . وانى أدرك أن الأمر فى حاجة الى تغيير شامل ووضع حد لهذه الفوضى . لأن استمرار الفوضى يغرى حتى النظفاء من الناس على الفساد ، فينظر كل منا حوله باحثا عن قدوة صالحة يقتدى بها ، فلا يجد ، فيندفع تلقائيا مع التيار ، تيار النفاق والفساد فى الأرض . نعم ان الأمر فى حاجة الى تغيير شامل وتشريع قوانين جديدة ، لكن حتى يتم هذا لا يجوز أن نقف مكتوفى الأيدى ، فما هو قائم من قوانين يكفى فى الواقع لوضع حد لكل هذه المهازل ، لكننا توقفنا مع الأسف عن تطبيق القانون ، بل وأصبحت المطالبة باحترام القانون جريمة فى نظر الكهنة وغيرهم .

سيدتى الرئيسة ، سيدى المستشار — شاءت الصدفة أن يكون السيد أح — بو هو نفسه الرجل الذى أمر مسكينا هزيلا بأن يحمل من الأثقال أكثر مما يستطيع . لقد أساء المتهم بفعله هذا استخدام ما يملك من مال وسلطان ، علما بأن حامل الأثاث كان مضطرا لقبول هذا العمل تحت كافة الظروف ، فقد كان ما لديه من قوت قد نفد وكان قد ترك داره وأطفاله يبكون جوعا .

لقد غاب عن بال الأثرياء فى هذا البلد أن المال — مثله فى ذلك مثل السلطة — تكليف وليس تشريف ، وان على صاحب المال واجبات عديدة تجاه المجتمع ، فهو لم يرزق المال ليعبث به أو ليستغل الناس ويسىء معاملتهم . فان فعل ذلك ، فقد حقه فى الاحتفاظ بماله . لقد وصفت السيد أح — بو فى بداية كلمتى بأنه مريض أصيب بداء بلادة الحس ، وتمنيت أن يكون فى عقابه علاجا له ، وهأنذا أحدد ما قلت من قبل : اننى أطالب المحكمة الموقرة بنزع ملكية أموال السيد أح — بو كلية ، بحيث لا يبقى لديه أى شىء اطلاقا ، فيصبح فى حال مثل حال حامل الأثاث ، وينظر الى الحياة من الزاوية التى ينظر الفقراء منها اليها ، ومن يدرى فقد يدرك عندئذ ما يعانيه هؤلاء الناس ، وتعود اليه آدميته بعد أن تحول الى ذئب شرس وتبدأ الحياة تدب من جديد فى خلايا حسه وشعوره التى يبدو أنها ماتت منذ أمد بعيد » .

هنا قاطعت السيدة تو — با المعلم قائلة : « هل يطلب المدعى هذا عقابا على جريمة ايجاع الشعب أم عقابا على جريمة اساءة معاملة الرجل الفقير ، أم عقابا على كلتا الجريمتين ؟ » .

قال المعلم : « نزع الملكية عقاب على جريمة ايجاع الشعب وعلى المحكمة أن تعطى حامل الأثاث من مال أح — بو بعد أن يتم نزع ملكيته تعويضا لما حدث له ، فقد أصيب الرجل بجروح اثر سقوطه فى الطريق .

سيدتى الرئيسة ، سيدى المستشار — المجموعة الثالثة من المتهمين هم حفنة من سكان شارع تحتمس الثالث ارتكبوا الجريمة الرابعة والأخيرة وتتلخص فى رفضهم تقديم أى مساعدة لحامل الأثاث عند وقوعه وتوجيه الاهانات اليه ، وهم لم يفعلوا هذا مع البائس وحده ، بل أيضا مع ابن الاله الملك أمنحتب الرابع ، الذى شاهد كل شىء متنكرا فى ثياب غير ثيابه . وانى لا أجد وصفا لجريمتهم غير انها أيضا نتيجة لبلادة الحس التى تحدثت عنها . وقد تهيأ لنا أن جريمة هؤلاء الأشخاص اقل فداحة من ايجاع الناس ومن الخيانة العظمى واستغلال الانسان للانسان . لكننى أطالب مع ذلك بايقاع أقصى عقوبة ممكنة على المتهمين حتى يتنبه الغافلون الى ضرورة العودة الى الحب والرحمة والرأفة والتآخى وحتى ينتهى ما نعيشه من حرب يومية طاحنة أفسدت علينا حياتنا وجعلت من كل منا عدوا للآخر . شكرا للمحكمة الموقرة على استماعها » .

هنا أعطت السيدة تو — يا الكلمة للدفاع ، فتقدم شاب وسيم هو ابن اقطاعى كبير كان أبوه قد أرسله الى الخارج فزار بلادا كثيرة درس بها علوم الاقتصاد والقانون ، ثم عاد الى طيبة ليدرس اللاهوت وأصبح كاهنا من كبار كهنة آمون . وكان الشعب

يطلق عليه اسم « أنياب الذئب ورأس الثعلب فى فرو الغزال » .
تقدم هذا الشاب فى زيه الدينى ليقول : اننى بعد استماعى لكلمة المدعى العام اتساءل ان كنا حقا فى مصر وبعاصمتها طيبة ، أم نحن فى حلم كئيب عسى أن نستيقظ منه سريعا . ان المدعى العام الذى يتحدث هنا باسم الملك والشعب قد وجه الى هذا الشعب بأكمله تهمة بلادة الحس ، ولما كان هذا المرض على حد قوله قد أصاب الأقلية والأكثرية على حد سواء فأصبح من غير الضرورى أن أتعرض الى هذه النقطة . أما اذا أصر سيادة المدعى على أنه فى تصرف سكان شارع تحتمس بلادة للحس وأن هذه البلادة مرض بل وجريمة لابد أن يعاقبوا عليها ، فعليه أن يكون منطقيا فيما يريد ، فيطالب فى نفس الوقت بتقديم شعب مصر بأكمله الى المحاكمة ..

لكن كلمة المدعى العام بعيدة مع الأسف كل البعد عن المنطق .
يتعرض لاقتصاد البلاد دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن علم الاقتصاد . المدعى يتوهم أن السيد أح — بو يحدد الأسعار اعتباطا وكما يشاء ، وهذا ليس فقط غير صحيح وانما علميا أمر مستحيل .
السيد أح — بو يقوم ببناء مزارع جديدة للدواجن ، وهو فى حاجة الى الحجارة وغيرها من مواد البناء فهل للمدعى العام علم بمدى ارتفاع أسعار هذه المواد فى السنوات الأخيرة ؟ السيد أح — بو يشترى الحبوب للدجاج ويدفع أجر العاملين بالمزارع فهل يدرى المدعى شيئا عن ارتفاع أسعار العلف وعن تطور الأجور .
ان حديث المدعى العام عن ضرورة خفض الأسعار حديث وان كان

شيئا فهو غاية فى السذاجة لأن — وهــذا ما خفى عليه — ثمن أى سلعة مرتبط بأسعار سلع أخرى كثيرة ، لكن المدعى يتحدث عن السيد أح — بو كما لو كان هــذا الأخير يسير وحده عجلة الاقتصاد ويحــدد اتجاههــا . المدعى يزعم أن السيد أح — بو قد رفع الأسعار ، أصبحت الناس غير قادرة على الشراء ، لكن هل من مصلحة أى تاجر أن يمتنع الناس عن الشراء ؟.

سيدتى الرئيسة ، سيدى المستشار — ان من مصلحة التاجر أن يبيع . هذه حقيقة لا نقاش فيها . هو اذن يحدد أسعاره بحيث لا تفوق طاقة المشترى ، لأنها لو تخطت قدرة المشترى سيتوقف عن الشراء ، وانشاء الســيد أح — بو لمزارع جديدة يدل على أنه مستمر فى البيع والتجارة بنجــاح . فكيف يزعم المدعى اذن أن السيد أح — بو يقوم باجاعة الشعب ؟ ان كانت هناك مجموعة من الناس غير قادرة على الشراء فهذا راجع الى أن هؤلاء — وهذا مع الأسف صــحيح — من الكسالى الذين لا يريدون العمــل . وهنا تتضح لنا اهمية سياسة السوق الحرة ، التى تحدد فيهــا الأسعار على أساس العرض والطلب ، فارتفاع الأســعار ناتج عن قلة العرض وازدياد الطلب ، لكن قلة العرض ناتجة بدورها عن نقص فى الانتاج . ارتفاع الأسعار يجبر الناس على مضاعفة العمل لزيادة الدخل ، فيصبحون قادرين على شراء ما يبتغون . تتطور اذن كمية العمل بصورة ايجابية ، فيرتفع الانتاج ويزداد العرض ، وتعود الأسعار الى الانخفاض . اى أن ارتفاع الأسعار هو السبيل الوحيــد لخفضــها . والتدخل من جانب السلطات

لا يؤدى الا الى نتائج سلبية ، هذه هى ديناميكية السوق الحرة ولا أظن أن المدعى العام قد قرأ أو سمع شيئا عن هذا .

المدعى العام يحلل الوضع الاقتصادى فى البلد من وجهة نظر انسانية بحتة ، ومع احترامى لهذا التفكير النبيل أجدنى مضطرا لمصارحتكم بأنه لا يمكن أن يحل مشاكلنا الاقتصادية القائمة . فان رأيتم الناس لا يستطيعون الشراء ، فاطلبوا منهم أن يعملوا بجد واخلاص كى يرتفع الانتاج ، عندئذ فقط ستنخفض الأسعار .

سيدتى الرئيسة ، سيدى المستشار — ان كهنة آمون لم يحاولوا اقامة دولة داخل الدولة ، بل هم اختاروا لأنفسهم مسئولية المحافظة على الأمن بالبلاد ، وهم بذلك لم يخونوا الملك ، بل كانوا على العكس خير سند له . فأجهزة الدولة مع الأسف لا ترى ولا تراقب ما يحدث ، وما حدث ظهر الأمس كان من الممكن أن يتطور الى مظاهرة كبرى يستغلها السفهاء للتدمير والنهب ، فأين كانت أجهزة الدولة ؟ .

يقول ان أطفال حامل الأثاث كانت تبكى جوعا . لكننى أسأله : لماذا انتظر الرجل طويلا حتى بدأت أطفاله تبكى جوعا ؟ يقول المدعى ان السيد أح — بو قد أجبر الرجل على حمل ما يفوق طاقته ، وأقول ان هذا ليس بالصحيح ، فالسيد أح — بو لم يجبر الرجل اطلاقا ، بل الرجل هو الذى توسل اليه أن يكلفه دون غيره

بهـــذا العمـــل . ثم ان كمية الأثاث لا تفوق طاقة الرجل اطلاقا فبوسع أى انسان أن يحمل نفس الكمية من الأثاث دون أن يسقط ويدمر ما استأمنه الناس عليه .

سيدتى الرئيسة ، سيدى المستشار — انى لكل ما تقـــدم أطلب من المحكمة الموقرة الحـــكم ببراءة كافة المتهمين وتعويضهم عما لحق بهم من اهانة ، فالذين يقفون أمامكم فى قفص الاتهـــام ليسوا خيرة الشعب وصفوته فحسب ، وانما هم دعائم المجتمع » .

طلب المـــدعى الكلمة مرة ثانيـــة فأعطيت له ، فقـــال : « الدفاع يطلب من المجتمع أن يجبر الجوعى على العمـــل بنشاط أكثر ، ولا أدرى أى الأمرين يجب أن يســـبق الآخر : أن يعطى الجائع ما يكفيه من الغذاء ، فتزداد قدرته على العمل والانتاج ، أم نتركه ضعيفا هزيلا واهيا ثم نطلب منه رغم هذا عملا أكثر وانتاجا أحسن . انى اترك للمحكمة الموقرة الاجابة على هذا السؤال .

الدفاع يزعم أن الناس غير قادرة على الشراء لأنهم كسالى لا يريدون العمل فى جد واخلاص كى يزداد دخلهم . لكنكم تعلمون أن الكثيرين من العمال والموظفين يقومون الآن بعملين فيصل متوسط وقت العمل بالنسبة للكثيرين الى ١٦ ساعة يوميـــا ، لكن أجر الـــ ١٦ ساعة لا يمكنهم من شراء ما كانوا يشترون فى الماضى بأجر ٨ ساعات . ورغم هـــذا لا يوجد عمل لكل مواطن ، وقد اعترف

الدفاع بهذه الحقيقة عندما قال ان حامل الأثاث هو الذى توسل الى السيد أح — بو ان يكلفه دون غيره بنقل المتاع .

الدفاع يعلن ان السيد اح — بو لا يسير وحده عجلة الاقتصاد ، وأقول ان السيد اح — بو صديق للسيد اس — تشبه أكبر تاجر للعلف والحبوب ، والاثنين أصدقاء لكبار الاقطاعيين ولما كان على قدر ما أعلم سعر ماء النيل لم يرتفع منذ قرون كثيرة ، مثله فى ذلك مثل أجر الفلاحين فانى لا أرى داعيا لارتفاع أسعار الحبوب .

الدفاع يتحدث عن ديناميكية السوق الحرة . لكن أين هى السوق الحرة ؟ لا يوجد بالسوق من ينافس السيد أح — بو ، فقد تمكن من احتكار تجارة البيض والدواجن ، وأصبح يتحكم وحده وكما يشاء فى كمية العرض ، ويؤثر بالتالى كما يشاء على الأسعار .

الدفاع يدعى أن كمية العرض ترتبط دائما بكمية الانتاج ، وهذا غير صحيح . فانتاج السيد أح — بو كما اعترف الدفاع يزداد ، لكنه يرفض منذ شهور ذبح الدجاج وبدأ فى الأسابيع الأخيرة فى تخزين البيض ، كى لا تتعدى كمية العرض ما وضعه لها من حدود ، وكى تستمر الأسعار فى الصعود .

الدفاع يقول اننى أسأت الى شعب مصر ككل . وهذا أيضا غير صحيح . لقد قلت أن بلادة الحس لدى الأقلية أحدثت ما يشبه العدوى ، فانتشر الوباء على صور مختلفة بالبلاد . لكن الأقلية

الفاسدة هى مصدر البلاء ، هى المسبب والمسئول الوحيد عما وصلنا اليه » .

كان المعلم يتكلم فى انفعال شديد ، فتوقف لحظة قصيرة ، استعاد شيئا من هدوئه ، ثم استأنف حديثه قائلا :

« لقد أشار الدفاع الى جهلى بأمور الاقتصاد ، ولا يسعنى الا أن أعترف له بأن مصدر علمى بأى امر كان هو مراقبة من أعيش بينهم من الناس ، وما يحدث حولى وحولهم من احداث ، ثم التفكير فى كل هذا وذاك والبحث عن اسبابه . لكن هذا ليس موضوع القضية . موضوع القضية — وهو الأمر الذى لم يتعرض له الدفاع بل تجاهله تماما — هو اولا وأخيرا تحالف الكهنة مع رجال الأعمال والتجار ضد مصالح الشعب مما أفسد علينا حياتنا الاجتماعية كلها ، واعنى بذلك حياتنا بكل جوانبها ، مادية كانت أم فكرية .

سيدتى الرئيسة ، سيدى المستشار — اننى انظر الى هذه القضية كبداية متواضعة فى حركة شاملة جارفة ، اذ أن الكهنة فى واقع الأمر لا يتحالفون وحدهم مع السماسرة ، الكهنة رمز ليس الا ، فقد تحالفت ادارة الدولة نفسها مع اللصوص ، فرأينا على سبيل المثال وزير بيت المال يعيد الى تاجر محتال ما دفعه هذا الأخير من ضرائب وذلك بحجة المساهمة فى خفض اسعار مواد البناء . نعم لقد تحولت ادارة الدولة من أجهزة تنفيذ ورقابة الى شريك فى نهب أموال الشعب ، وقد آن الأوان لوضع حد لكل هذا التخريب ، بل انى أخشى أن يكون الوقت قد تأخر قليلا ،

فهى دقيقة واحدة قبـــل ان ينتصف الليـــل ، وعلينا ان نبدأ فورا فى صدق واخلاص والا ضاعت الفرصة الأخيرة » .

أحدثت جراة المعلم وشجاعته الكثير من الذعر فى نفـــوس المتهمين وتوقعوا أن يقف الملك بوصفه رئيسا للدولة فيضع حـــدا لما اعتبروه وقاحة لا تغتفر . لكن كم كانت خيبتهم عنـــدما نظروا الى الملك فوجدوا على وجهه كل علامات الموافقـــة على ما قاله المدعى العـــام .

وسألت السيدة تو ـــ با الدفاع ان كان يريد التعقيب على رد المدعى ، فأجاب الشاب الوسيم بلهجة فيهـــا مزيج من اليـــأس والتعالى : « لا أرى ضرورة لهذا وأترك الأمر للمحكمة » .

هنا قالت السيدة تو ـــ با : « لقد تتبعت باهتمام بالغ ما قاله المدعى العـــام وما قاله الدفاع ، لكن أمرا خفى على فلم افهمـــه حق الفهم ويهيـــأ لى أنه جوهر النزاع . فالمحكمـــة فى حاجـــة الى تعريف واضح لكلمة النظام . ما هو النظام ؟ » .

هنا بدت على وجوه المتهمين أبتسامات السخرية والاستهزاء ، وتبادلوا نظرات معناها « أهذه هى التى جعل منها الملك قاضية ؟ » أما الملك فقد تعجب أيضا لسؤال السيدة تو ـــ با وخشى أن يكون قد توقع فيها من الذكاء أكثر مما لها حقا . لكن كم كانت دهشته عندما شاهد الكهل الحكيم يبدى بايماءة ضعيفة من راسه موافقته على سؤال تو ـــ با واعتباره اياه ضروريا .

أما الدفاع فقد أسرع بالاجابة على سؤال القاضية وكأنه كان قد حفظها عن ظهر قلب . أجاب بلهجة أســـتاذ يلقن تلاميذه ما لا يعلمون .

الدفاع : لكل مجتمع ، ســـيدتى رئيسة المحكمـــة الموقرة ، مجموعة من القواعد لابد أن يحترمها الجميع ليتمكنوا من العيش معا فى أمن وسلام . من هذه القواعد ما هو مكتوب مثل الدستور والقوانين ، ومنها ما هو غير مكتوب مثل العرف والتقاليد . مجموع هذه القواعد كلها يحدد حقوق كل فرد وواجباته ، ما له وما عليه . والنظام هو أولا هذه القواعد وهو ثانيا الوضع السائد عند احترام هذه القواعد . ولما كان خير ما يوضح دلائل الأمور هو نقيضـــها ، فانى أشير الى أن عكس كلمة النظام هى كلمة الفوضى .

رئيسة المحكمة : أليس من الممكن أن تكون بعض هذه القواعد التى يتحدث عنها الدفاع ، بنودا دستورية كانت أم مواد قانونية ، خاطئـــة ؟.

الدفاع : هذا ممكن . وفى الواقع لا يوجد فى ميدان القوانين بمعناها الشامل خطأ ولا يوجـــد صواب ، وانما الأمر تشريع يتم عن طريق الاتفاق . الصواب هو اذن ما اتفق على أنه صواب ، والخطأ هو ما اتفق على أنه خطأ . وخير دليل على ذلك هو اختلاف القوانين والتقاليد باختلاف المجتمعات ، من الممكن اذن أن نسمى

مجموعة من القوانين بأنها خاطئة ، لكن هذا لا يتم بصورة فردية تعسفية والا تحول النظام الى فوضى .

رئيسة المحكمة : النظام هو اذن مجموع القواعد القائمة لضمان سير الحياة الاجتماعية فى أمن وسلام . وليس من المستبعد أن تكون هذه القواعد أو بعضها خاطئة ، وتغييرها عندئذ أمر لا يقرره طرف من الأطراف بصورة تعسفية . لكن لمن الحق فى التغيير ؟.

الدفاع : نظام مصر قائم منذ بداية تاريخها حتى اليوم على ارادة الصفوة المميزة وعلى رأسها الملك . هذه الصفوة ، سواء كانت من الكهنة أم من قادة الجيش أو رجال الأعمال ، تعبر عن الارادة الالهية ، بل وتنوب عنها ، فلو لم ترض عنها الآلهة لما أوصلتها الى السلطة .

رئيسة المحكمة : تقول أن ليس هناك خطأ أو صواب فى مسائل القانون وان الأمر تشريع يتم عن طريق الاتفاق بين أعضاء النخبة الممتازة . لكن ألا تعتقد أن لدينا معيارا واضحا نستطيع أن نقيم به دائما مدى صحة القوانين ، فما ينفع الأكثرية صالح مقبول وما يضرهم خاطىء مرفوض ؟ فلنفترض مثلا أن بين مصالح الصفوة المميزة وبين مصالح الأغلبية الساحقة تناقضا واضحا ، ولنفترض أن الصفوة المميزة قد سنت ما هو قائم من قوانين لا لشىء الا للحفاظ على مصالحها ، ولنفترض أن أكثرية الناس تنظر الى هذه القوانين على أنها خاطئة لأنها تلحق بهم الضرر والمهانة يوما بعد يوم ،

فهل تعتبر حينئذ محاولة ابقاء هذه القوانين بقوة السلاح حفاظا على الأمن أم عملا ارهابيا ؟.

الدفاع : من وجهة النظر القانونية هى محاولة للحفاظ على النظام .

رئيسة المحكمة : ومن وجهة النظر الواقعية ؟.

الدفاع : معذرة ! انى رجل قانون .

رئيسة المحكمة : هل للمدعى العام ما يضيفه كى يزداد معنى كلمة النظام وضوحا ؟.

المدعى العام : يسرنى ان أرى الدفاع قد تحول الى رجل قانون ليس الا . ألم يدرس اللاهوت ؟ واليس اليوم من كبار كهنة آمون ؟ يقول ان محاولة الابقاء على القوانين الخاطئة بقوة السلاح هى حفاظ على الأمن ! لقد غاب عنه أن الدولة قد احتفظت لنفسها دون غيرها بحق استخدام السلاح ، فتأليف عصابات ارهابية مسلحة عمل غير قانونى مهما كانت غايته ، وما دامت الدولة لم تكلف الكهنة بالحفاظ على النظام يصبح أى تدخل من جانبهم خروجا على القانون .

ان الحوار الذى دار بين المحكمة والدفاع قد اوضح الأمور وليس لى فى الواقع ما اضيفه . اعداء الشعب يطلقون على ما هو قائم من فوضى اسم النظام ، ثم يصفون انفسهم بأنهم خير ضمان لبقاء هذا النظام . هم فى حقيقة الأمر خير ضمان لاستمرار

الفوضى ، ولما كان من المستحيل اقتنـاع النـاس بأن في استمرار الفوضى ربحـا لهم وسـعادة ، فان أعـداء الشـعب يلجـأون — مضطرين — الى الارهاب .

سيدتي رئيسة المحكمة ، سيدي المستشار — ما هو النظام ؟ وما هي الفوضى ؟ وما هو الفرق بينهما ؟.

احترام الجميع للقـانون ينتج عنه وضع نسميه بالنظام . هذا صحيح . لكن لكي يحترم الجميع القانون ، لابد أن يكون العدل خلفيته ومصدره . لقد زعم الدفاع أن المسألة نسبية وأنها قائمة على اتفاق يتم بين أعضاء ما أسماه بالصفوة المميزة ، وهذا الزعم وان بدا في الوهلة الأولى صحيحا ، فهو زعم خاطيء غريب علينا ، بعيد عن فكرنا ، ذلك أن رجالا من أبنـاء هـذا البلد استطاعوا في عصور مختلفة من تاريخنا الطويل أن يجردوا مرة بعد أخرى تلك النخبة الممتازة مما لها من سلطان وأن يفرضوا ارادتهم عليهـا في صورة قوانين قاموا بصياغتها ، ما زالت باقية حتى يومنا هذا اما على أوراق البردي ، واما في وجدان الشعب وضميره . وكانت الصفة المميزة لهذه القوانين هي دائما ارادة العـدل .

سيدتي رئيسة المحكمة ، سيدي المستشار — اسمحوا لي بأن أذكر الدفاع بكلمات من تراثنا كي يدرك أن القـانون لا يعبر عن ارادة أقلية متسلطة أسماها بالصـفوة المميزة ، وانما هو في مفهومنا تعبير عن ارادة الهية عليا هدفها الحب والخير والعدل

بين الناس » فلنستمع الى ما تلقاه الأمير مريكا رع من نصائح وجهها اليه الملك قبل موته :

يا بنى : ان عدلت بين النـــاس
ونسيت أن تقـــدم للاله قربانا
فأنت رغم هـــذا أقرب الى الاله
من ظالم ينحر له كل يوم ثورا

يا بنى : لا تعـــذب أرملة
ولا تأخذ مال اليتـــامى

يا بنى :
هنـــاك الغنى وابن الغنى
وهنـــاك الفقير وابن الفقير
لكن لا فرق بين أولئك وهؤلاء
وانما قيم النـــاس بأعمالهم

لقد مضت على هذه الكلمات عشرة قرون ، لكنها ما زالت باقية فى وجداننا ، تذكرنا بأن العدل هو جوهر العقيدة وسبيل الايمان ، وبأن فى العدل عبادة للاله هى عنده خير من الف صلاة :

يا بنى : ان عدلت بين النـــاس

ونسيت أن تقـــدم للاله قربانا

فأنت أقرب الى الاله

من ظالم ينحر له كل يوم ثورا .

لينتبه اذن من يحترفون تصـــنع الايمان والتظـــاهر بالورع والتقوى ، ليعودوا الى صوابهم وليكفوا عن ذر الرماد فى العيون . الايمان هو عمـــل الخير والعدل بين الناس وما الطقوس وترديد الأناشيد الا وسيلة تذكرنا بالارادة الالهية ، وبما فرضته علينـــا من طلب العـــدل ورفض الظلم .

هـــذا الشعب عاش آلاف السنين وسيظل يعيش فى أمل لم يتحقق بعد ، أمل ورثناه عن آبائنا وورثه آباؤنا عن أجدادنا ، وهكذا جيـــل بعد جيـــل ، فكانوا يرددون كلمات نفرو ـــ هو ، وما زلنـــا نرددها :

سيأتى يوم يسود فيه العدل ويختفى الظلم .

سيدتى رئيسة المحكمة ، سيدى المستشار ـــ القـــانون ، ان لم يكن هدفه العـــدل ، يفقد صفة القـــانون ويصبح تحريضا للبعض على البغى والظلم واكراها للبعض الآخر على تحمل هـــذا الظلم صابرين » .

كان الملك يستمع الى كلمات النائب العام فى تركيز وانتبـاه بالغين ، وكأنه يحرص كل الحرص على الا يفوته مقطع واحـد من كلمة واحدة ، فلما انتهى النائب العام من حديثه نظر أمنحتب الرابع الى نفروتيتى باحثا فى وجهها عما أحدثته الكلمات من تأثير فى نفسـها ، لكن نفروتيتى كانت بدورها تنظـر الى الملكة الأم فى محاولة عابثة لقراءة ما يدور بداخلها من أفكار ، محاولة عابثة لأن تى — يا كانت قد تعودت خلال حياتها المليئة بالتجارب على السيطرة التامة على نفسها فى أى موقف كان ومهما كانت الظروف ، فأصبحت تتحكم فى حركة كل عضلة من عضلات وجههـا ، بحيث لا يدرى من ينظر اليها شيئا عما يفتعل بداخلهـا . لكن ماذا كان يفتعل بداخلها ؟ لقد كانت ترمى من وقت لآخر بنظرات سريعـة ثاقبة ، حينا الى السيدة تو — يا وحينا آخر الى المعلم ، نظرات تتفحص هذين الوجهين فى اهتمام بالغ . هؤلاء هم المصريون ، وولدى لا يدرى عنهم غير القليل ، ولدى نصف مصرى مثله فى ذلك مثل أبيه ، وزوجته — هذه الجميلة التى أتت من شمال سوريا — من اين لها أن تفهم هذا الشعب ؟ اما أنا فأعرفكم ، أنا منكم ، أبى وامى واجدادى ، كل أجدادى منكم ، من الشعب ، فلسنا من دم ملكى . نعم انى اعرفكم . تسىء اليكم الحياة ، فيحسبكم الجميع بؤسـاء جبنـاء خائفين لا حول لهم ولا قوة ، ويقال عنكم انكم قد تعودتم على الذل فأصبحتم ودعاء كالكباش عندما تضع رقابها تحت سكين الجزار . ثم اذا بكم ترفعون رؤوسكم فتحبس الدنيا أنفاسها وتوجه أنظارها اليكم . هـذه الأرض السـوداء الطيبة لا ينمو فوقها خير النبات فحسب . انهـا تنتج أيضا نوعا غريبا

من البشر ، رجالا يغيرون مجرى التاريخ ويوجهون سياسة العالم .
لكن هذه الأرض — ويالأسف — تنتج أيضا أعشابا ضارة ، ينمو فوقها — ويا للأسف — نوع قبيح من الناس يتخـذون من الخبث والنفاق صراطا لهم ومنهجا . فأى النوعين يا ترى سيحدد فى النهاية مصير هذه الأرض ؟.

وتفيق الأم المصرية ابنة الشعب على صوت السيدة تو — با وهى تسأل الدفاع . .

رئيسة المحكمة : هل السيد أح — بو على استعداد ليثبت للمحكمة بصور سريعة مقنعـة ان كمية المتاع الذى كلف الحامل بنقلها لا تفوق طاقة انسان واحد ؟.

الدفاع : معذرة ! لم افهم قصد المحكمة .

رئيسة المحكمة : قيام السيد أح — بو بحمل الأثاث والسير به أمامنا ذهابا وايابا مدة خمس دقائق سيثبت للمحكمة عدم صـحة التهمة التى وجهها اليه النائب العام فى هذا الصدد .

النائب العام : النيابة ترفض اعتبار هـذا دليلا على عدم صحة التهمة ، فالسيد أح — بو يتمتع بصحة لا تتوفر عند المسكين ولا مجال للمقارنة .

رئيسة المحكمة : المحكمة ترفض اعتراض المدعى العـام وان كان له ما يبرره ..

الدفاع (بعد أن تهامس مع اح ـــ بو) : الدفاع يرفض أيضا اقتراح المحكمة . ان الذين نطلق عليهم اسم المساكين لهم قدرات بدنية لا تتوفر عند غيرهم ، فهم قد تعودوا منذ الصغر على القيام بأعمال نعتبرها نحن شاقة ، لكنها يسيرة عليهم . ولا يخفى على المحكمة الموقرة أن الطاقة البدنية لا علاقة لها بكمية الغذاء ونوعه ، اذ أن أجسام هؤلاء . . . هؤلاء الناس . . قادرة على أن تستخلص مما يأكلون من طعام كل ما يحتويه من مواد نافعة . ثم أننى أظن أنه من العيب كل العيب أن يهان رجل من شرفاء طيبة مثل هـــذه الاهانة ، عندما نجبره على حمـــل الأثقـــال والسير بهـــا أمامنا ذهابا وايابا .

رئيسة المحكمة : أيعتبر الدفاع فى حمل الأثقال مذلة ؟.

الدفاع : أرجو الا يساء فهمى ، فلم اقصد التعميم ، هنـــاك أعمال يتخذ منها البعض مهنة تدر عليهم الربح ، بينما يرى البعض الآخر فيهـــا مهـــانة ومذلة . وكلا الطرفين على حق ، فالمسألة نسبية ، وآمون لم يرد للناس أن يكونوا سواسية كأسنان المشط .

هنـــا نظرت السيدة تو ـــ با ـــ ولأول مرة ـــ الى الكهـــل الحكيم فأجاب نظرتها بابتسامة هادئة من وجهه المضىء كانت على نفسها كالبلسم على الجرح ، فاستمرت محتفظة بهدوئها ، ولم يبد عليها أى انفعال ، بل على العكس من ذلك زادتها اهانة الدفاع

— التى لم تدر ان كان قد تعمـدها أم لا — اصرارا على تحـرى الحقيقة كما يفرضه عليها ما خول اليها من واجب .

صمتت لحظة مالت بعدها برأسـها الى الكهل الحكيم ، فتهامسا بعض الوقت ثم قالت :

رئيسة المحكمة : حسنا ! الدفاع يرفض اذن اقتراح المحكمة ، مثله فى ذلك مثل المدعى العـام . لقد قررت المحكمة رفع الجلسة للمداولة واصدار الحكم ، لكن يؤسفنى أن أعلن للمدعى العـام قبل رفع الجلسة أن المحكمة لن تناقش التهمة الموجهة الى سكان شارع تحتمس الثالث ، فبلادة الحس التى تحدث عنها طويلا ، وان كانت فعلا وباء خطيرا كما قال ، فهى ليست جريمة يعاقب عليهـا القـانون .

المدعى العام (فى اصرار) : لنترك تعبير « بلادة الحس » ولنصف الأمور على النحو التالى :

حامل الأثاث كان فى حاجة الى المساعدة فلم تقدم اليـه . والقانون يعتبر عدم تقديم المساعدة لمن فى حاجة اليهـا جريمـة تستحق العقـاب .

المستشـار : القانون يفرض فقط مساعدة من قد يتعرضون للموت السريع ان لم تقـدم تلك المساعدة ، مثـل الغريق أو من يتواجدون فى دار تحترق أو تحت الأنقاض بعـد حدوث زلزال . ونحن وان كنا لا نوافق على سلوك المتهمين ، الا أننـا لم نقتنع

حتى الآن بأن حياة حامل الأثاث كانت فى خطر يستدعى المساعدة الفورية .

المدعى العام (فى اصرار أكثر) : عند تطبيق بند من البنود لا يجوز لنا أن نكتفى بما يتضمنه من كلمات ، وانما علينا أن نضع فى الاعتبار روح القانون التى انبثقت منها تلك الكلمات . وروح القـــانون غايتها أن يتآخى الناس ويشفق بعضهم على بعض .

فكيف ندعى اذن أن الرحمة ليست مادة من مواد القانون ؟.

لقد قلت ، سيدى المستشار ، أن القانون يفرض مساعدة الغريق ومن يتواجدون فى دار تحترق . وانى أسأل المحكمة الموقرة : ألسنا جميعا غرقى .. غرقى فى بيت يحترق ؟.

سيدتى الرئيسة ، سيدى المستشار — ان كانت المحكمة الموقرة تصر على الالتزام بحروف القانون دون روحـــه ، فالأمر مع ذلك يســـير ، فليس على المحكمة غير أن تضيف الآن وهنـــا مادة جديدة تتفق مع روح القـــانون .

المستشار : عمل القضاة ليس صياغة القانون وانما تفسيره وتطبيقه . صياغة الجـــديد من القوانين من حق الملك وحـــده ، فهو السلطة التنفيذية والتشريعية فى شخص واحد ، هكذا كان الأمر منذ آلاف السنين ، وما زال كذلك حتى يومنا ، وكل المحاولات لفصل السلطتين كانت دائما محاولات وهمية .

هنا وقف الملك ليقول : حسنا ! مادام الأمر كذلك فانى أضيف اليوم للقانون مادة جديدة هى « قسوة الانسان على الانسان جريمة عقابها نزع الملكية » .

فوجىء الجميع ، فلم يكن أحد يتوقع أن يتدخل الملك ، وأن يتدخل بهذا الحزم القاطع الأكيد .

وساد صمت رهيب دام عدة لحظات ، قطعه الكهل الحكيم قائلا :

« مولاى ! لقد أضفت الآن للقانون مادة جديدة نحن فى أشد الحاجة اليها ، ولا يسعنا الا أن نبدى خشوعنا أمام هذه الارادة السامية التى دافعها حب الحق والخير . ولما كنت ابن الاله فان اضافة هذا المبدأ الجديد ليس حدثا قانونيا فحسب وانما بداية لاصلاح دينى ، فالديانات المصرية على تنوعها خلال تاريخنا الطويل لم تهتم — على خلاف غيرها من ديانات الشعوب الأخرى — بما وراء الطبيعة من قوى خارقة تتحكم فى سقوط السيول وتفجر البراكين وزلزلة الأرض ، بقدر اهتمامها بالناحية الأخلاقية التى تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض . لكن الكهنة — وهذا ما يؤسف له حقا — حولوا ديانة آمون الى حليف وسند للأثرياء وأصحاب الجاه ، وها أنت يا مولاى تضع حدا لهذا الانحراف .

لكن مغفرة ، مولاى ! هذه المادة التى أضفتها اليوم للقانون لم تكن موجودة بالأمس عندما رفض المتهمون مساعدة البائس

وأساءوا اليه ، ولا يجوز معاقبة عمل من الأعمال استنادا الى مادة قانونية صدرت بعد وقوع هذا العمل . لا يمكن معاقبة جريمة ما استنادا الى قانون صدر بعد ارتكاب الجريمة ، بل ان الجريمة مولاى جريمة لأنها عمل يخالف مادة موجودة فى القانون . سلوك المتهمين ، ان تكرر اليوم جريمة ، لكنه لم يكن جريمة بالأمس » .

ظهرت ابتسامة الشماتة على وجـوه المتهمين ، وبدا على وجه المعـلم انفعال شـديد . وسألت السيدة تو ـ با الدفاع ان كان له أو لأحـد من المتهمين ما يقوله قبل أن ترفع الجلسة ، فأجاب : « اننا بعـد ما سمعناه من السيد المستشار على ثقـة من عدالة المحكمة ، وليس لنا ما نقوله » .

أما الملك فعـاد الى صمته حائرا ينظر الى نفروتيتى وتنظر الملـكة حائرة اليه . ويزيدهما حـيرة وقلقـا أن الملـكة الأم قد ثبتت نظراتها فى وجه الكهل الحكيم . الملكة الأم تتأمل هذا الوجه وتعود الى أفكارها .

نعـم هؤلاء هم المصريون . داعرة تتحول بين يوم وليـلة الى قاضية ! وأى قاضية ! وهذا الكهل الذى لم اسمع عنه قط ، اين كان ومن اين أتى ؟ وهذا المعلم البليغ الذى جعل منه ابنهـا نائبا عنه وعن الشعب ! من اين لهم جميعا هـذا العلم وهـذه الفصاحة . مصر . الأرض السوداء وما يحيط بها من صحارى . مصر . أرض الفكر . مصر . مصدر النور ومهد الحضارة ومعلم

الدنيا . مصر هى هذا الكهل وهذه المرأة وهذا المعلم . مصر هى ولدى الذى اكتشف وحده كل هؤلاء . لكن مصر هى أيضا هؤلاء الصعاليك الذين يكرهون الطريق المستقيم ، ولا يعرفون غير الوسائل الحلزونية اللولبية ، يتمرغون فى التراب زاحفين فيه على بطونهم مثلهم فى ذلك مثل الأفاعى . فألا من علاج لهذا المكر والنفاق ؟

وعندما تفيق الأم المصرية من أفكارها تكون الجلسة قد رفعت وعادت مرة أخرى للانعقاد ، وتنطق السيدة تو — با بالحكم وتكون الصاعقة وتحس تى — يا قبل غيرها بأن أرض مصر قد بدأت تزلزل زلزالها .

قالت تو — با فى صوت رزين ثابت اللهجة :

« لقد اقتنعت المحكمة بأن كافة المتهمين مذنبون بالمعنى الذى حدده النائب العام فى دعواه . لكن المحكمة ترى مع ذلك أن المتهمين ارتكبوا أعمالهم فى جو اجتماعى فاسد ، يشجع على الجريمة ويغرى بما تأتى به من ثمار .

ان المحكمة لتشعر حقا بالشفقة على السيد أح — بو الذى بدأ حياته فقيرا ، نزح الى طيبة من قرية صغيرة نائية بالصحراء ، فاذا به يرى فى العاصمة نفرا غير قليل من الناس يسرقون ويفسدون كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، ثم رآهم يتحايلون على القانون فى مهارة بالغة كان يحسدهم عليها فى بادىء الأمر ، لكنه ما لبث أن تعلم قواعد اللعبة وتبين أن الأمر هين يسير ، فرجال الادارة

يرحبون بالفساد لما يدره عليهم من رشوة لا ينتظرونها فحسب ، وانما يطلبونها بأنفسهم ويساومون فى قدرها . ثم اكتشف السيد أح — بو بعد ذلك أن اللصوص يشترون رجال الدين بمبالغ زهيدة ينفقونها على بناء معابد صغيرة تنشر الضجة من حولها ليلا ونهارا ، فتفسد على الناس ما هم فى أشد الحاجة اليه من هدوء وسكينة .

هكذا رأى الشاب الفقير أح — بو الخارجين على القانون يعيشـــون فى ترف ويسر ووئام مع رجال الادارة والدين . ثم نظر الى الشرفاء فرآهم يتعرضون للاضطهاد من قبـــل الخارجين على القانون . رأى النزهاء فقراء مساكين ، كثيرا ما يصيبهم الضعف والمرض أو يتولاهم الموت قبل الأوان من كثرة ما هم فيه من هم وعنـــاء .

هنـــا هيىء للشـــاب الفقير ان السرقة والسلب والنهب هى الفضيلة ، وأن الشرف وعفة النفس والنزاهة هى الرذيلة ، فبدأ يهرب الممنوعات ويرشى رجال الادارة ، وبعـــد أن أصاب فى كل هذا نجاحا كبيرا قرر أن يبدأ صفحة جديدة فى حياته فأنشأ مزارع لتربية الدواجن استخدم فيهـــا أحـــدث ما وصلنا اليـــه من وسائل . لكن الجريمـــة كانت قد امتلكت منـــه عقله وفؤاده وأصبحت عنده عادة يفوق سلطانها ارادته ، فما لبث أن شن حربا شعواء على غيره من أصحاب مزارع الدواجن ، فأعلنوا افلاسهم واحدا تلو الآخر وباعوا له مزارعهم بأبخس الأثمان . هكذا أصبح هو المنتج الوحيـــد للدجاج والبيض فى طيبـــة ، يحدد الأســـعار كما يحلو له ، يتستر عليـــه رجال الادارة ويباركه رجال الدين .

ولقد أفاض النائب العام فى الحديث عن هذا التحالف ولا نرى داعيا للتعرض له هنا مرة أخرى .

لقد تعلم السيد أح ــ بو الجريمة فى جو اجتماعى يدفع الى الجريمة ، تعلم الاحتكار فى جو يسمح بالاحتكار ، وتعلم اجاعة الناس وامتصاص دمائهم فى جو يبيح امتصاص الدماء .

ولما كان السيد أح ــ بو لا يقوم وحده بهذه الأعمال ، وانما هو مثل لغيره من آلاف الاستغلاليين فالمحكمة لا ترى أنه من العدل أن يعاقب هو وحده دون غيره . وما جدوى معاقبة شخص واحد من آلاف يسلكون نهجه ؟ قد يقال أن معاقبة السيد أح ــ بو ستدخل الخوف فى نفوس غيره من الخارجين على القانون ، فيتوقفون عما يرتكبون من جرائم يومية ضد الشعب . قد يقال هذا . لكن المحكمة ترى فى مثل هذا الاعتقاد وهما ليس الا ، فحالة الخوف من عقاب القانون لا تدوم عند الخارجين عليه غير أيام قليلة يعودون بعدها بحكم العادة الى ما كانوا يفعلون .

اننا فى حاجة الى اصلاح دينى واصلاح اقتصادى نقتلع بهما جذور الفساد من أرض مصر . علينا أن نقضى على مسببات الجريمة ، فهذا أنفع لنا من عقاب حالات فردية نضيع فيها وقتنا ونوهم الناس بأننا نكافح الفساد فى الوقت الذى نشغلهم فيه عن التفكير فى أسباب الفساد ، ذلك بمسرحيات هزلية مضحكة مبكية نطلق عليها حينا اسم « تحقيقات » وحينا آخر اسم « محاكمات » . ونحن فى حاجة الى بيئة اجتماعية لا ينمو ولا يترعرع

فيها الا النبات الصالح ، بيئة صالحة لا تجد فيها الجراثيم مجالا للتكاثر . مصر فى أشـــد الحاجـــة لكل هـــذا ، وقد آن الأوان ، وهى دقيقة واحدة قبل أن ينتصف الليل .

لكننا لسنا من أهل السياسة أو التشريع ، وانما قد عينا قضاة وطلب منا أن نفصل فى أمر عدد من الناس وجهت اليهم النيابة العامة تهمة ارتكاب جرائم خطيرة ضد الملك والشعب ، وقد اقتنعنا بأن المتهمين قد ارتكبوا هذه الجرائم كلها .

ثم اننا نعتقد أن الشعب بعد أن طال الظلام لا يريد أن ينتظر أكثر وأكثر حتى يأتى الاصـــلاح الشامل . لقد نفـــد صبر الناس والشعب متشوق لرؤية معالم بداية جديدة .

لكل ما تقدم ، باسم الملك وباسم الشعب ، حكمت المحكمة :

أولا ــ بنزع ملكية السيد اح ــ بو كليـــة .

ثانيا ــ حل عصابات الكهنة الارهابية فورا وتحويل أعضائها الى محاكم أخرى تفصل فيما ارتكبوه من جرائم .

ثالثا ــ بالسجن شهرا مع ايقاف التنفيذ على كل من الأفراد السبعة الذين رفضوا مساعدة حامل الأثاث .

رابعا ــ يعهد صاحب الجلالة الى لجنة من رجال القـــانون والاقتصاد بتنظيم عملية نزع الملكية على أن تلتزم هـــذه اللجنة بالمبادىء التالية :

مبدأ رقم ١ : لا تحول ملكيـــة المزارع الى الدولة ، وانما الى شركة تتكون من مجموع العاملين بالمزارع .

مبدأ رقم ٢ : ليس لأى من العاملين الحق فى المطالبة بنصيبه من مال الشركة ، فرأس المال كل لا يتجزأ ، وكل عضو بالشركة شريك فى الملكية طالما يعمـــل بالمزارع ، لكن اشتراكه فى الملكية ينتهى لحظة توقفه عن العمل ، دون أن تكون لورثته حقوق تتعلق بملكية الشركة .

مبدأ رقم ٣ : ليس من حق مجموع العاملين أن يقرروا بيع جزء من المزارع أو كلها ، فالمالك الاسمى للمزارع هو الشعب .

مبدأ رقم ٤ : يتولى العاملون وحـــدهم ادارة الشركة دون وصاية من جانب الدولة ، التى تتعهد بوضع عدد من المتخصصين تحت تصرف العاملين ، دون أن تكون لهـــؤلاء المتخصصين سلطة ادارية من أى نوع ، وانما عملهم استشارى بحت .

مبدأ رقم ٥ : يجوز للسيد أح ـــ بو ، وذلك بعد مضى نصف عام على الأقل من نزع الملكية ، أن ينضم الى العاملين ، فيصبح واحدا منهم ، له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات ، فتستفيد الشركة مما له من خبرة وتجربة .

مبدأ رقم ٦ : يقوم العاملون بتقاسم نصف صافى الأرباح ، واستثمار ثلثى النصف الآخر لانشاء مزارع جديدة من اجل زيادة الانتـــاج .

مبدأ رقم ٧ : يقوم العاملون بادخار الثلث الباقى من نصف الأرباح لانشاء معهد يدرس به النابغون من أبنائهم علوم الاقتصاد والقانون والادارة والحيوان والنبات . ولا تدرس بهــذا المعهد مواد أخرى ، ولا يحق لغير أبناء العاملين الالتحاق به ، ذلك كى يصـــبح الجيـــل القـــادم من العاملين بالمزارع قادرا على ادارة كل شئونها دون حاجة للمتخصصين الذين سبق ذكرهم .

هنا وقفت السيدة تو ــ با وطلبت من الحاضرين أن يرددوا معهــا :

عاشت مصر !.

فوقف الملك ، ووقفت نفرونيتى والملكة الأم ورددوا مع الجميع فى خشوع رهيب :

عاشت مصر !.

عندئذ فقط غادرت السيدة تو ــ با قاعة المحكمة يتبعهــا الكهل الحكيم .

٦ – ابراهـــيم

كانت قد مضت على هـــذه المحاكمة ثلاث سنوات استطاع خلالها أمنحتب الرابع ونفروتيتى وأتباعهما ان يضموا اليهم عددا من خيرة رجال مصر ونسائها ، ممن يؤمنون مثلهم بضرورة اجراء اصلاح أخلاقى واجتماعى فى البلاد . لكن أعداء الملك له ولأنصاره بالمرصاد ، والتوتر يزداد فى طيبة يوما بعد يوم بين الكهنة وحلفائهم من ناحية والملك وحزبه من ناحية أخرى . هنا تتدخل الملكة الأم تى — يا بعد أن التزمت الصمت طويلا .

— سألتنى يا بنى قبل أول محاكمة للكهنة عن رأيى فى فكرة اجراء اصلاح دينى شامل ، وأجبتك حينئذ بأنى أريد أولا وقبل كل شىء الحفاظ على عرش مصر ، لأن الملك رمز وحدة البلاد ، ولأنى لا أريد لنفوذ الكهنة أن يصل الى حـــد المطالبة السافرة بتقاسم السلطة مع الملك .

وصمتت تى — يا لحظة فقال الملك :

— نعم يا أماه ، هذا ما دار بيننا من حديث .

— ومازلت أتذكر يا بنى أنى بعد انتهاء هذه المحاكمة لم أبخل بالمديح على جرأتك ، فلم تتباطأ وانما أقدمت فى حزم على ما أحجم عنه أبوك ، وكنت سريع الفكر والفعل ، وأحسنت فى اختيـــار

من تولوا اجراء هذه المحاكمة من نســاء ورجال خــير احسان ، فأعجبتنى مهارتك ولم أخف عنك اعجابى .

وتوقفت الملكة الأم مرة أخرى عن الحــديث ، فيقطع الملك الصمت بقوله :

ــ هذا أيضا صحيح يا أماه . وقد زادنى رضاؤك عنى آنذاك اصرارا على المضى فيما كنت قد عزمت عليه .

ــ لكن محاكمات كثيرة أخرى تلت المحاكمة الأولى ، التى كانت فى تصورى تحذيرا كافيــا للكهنة وأصدقائهم ، فهى صفعة تلقوها صامتين بعد أن تلفتوا من حولهم فوجدوا الشعب قد التف حولك يؤيدك فيما تفعل . بينما هم قــد أصبحوا فى عزلة تامة . كان فى هذا الكفاية يا بنى .

ــ انك تعلمين خــيرا منى يا أماه أن الكهنــة كالثعابين ، واننا لكى نأمن شر الأفعى لابد أن نقطــع رأسها . وانك تعلمين خيرا منى يا أماه ما صار اليه حال تحتمس الرابع بعــد أن أعطى الكاهن الأعظم مرى لنفســه حق الاشراف على اقتصاد البــلاد حينذاك ضد ارادة الملك . وتعلمين أيضا أن كبير الكهنة هابوسنب قد اســتطاع انزال تحتمس الأول عن العــرش لينصب مكانه حتشبسوت ملكة على مصر .

ــ أعلم كل هذا يا بنى . لكن للحرب أوقات وللسلم أوقات . هناك أوقات نبدى فيها العداء وأخرى نتظاهر فيهــا بالمحبــة .

ومن الخطأ أن نفعل شيئا فى غير وقته . وما سعيت الى الحديث معك كى أهون من خطر الكهنة كما تظن . بل جئت لأحــذرك . فأنت تضيق عليهم الخناق بصـــورة لا تدع لهم أى فرصة اخرى لرد الفعل غير الهجوم عليك انقاذ ما يمكن انقاذه . فماذا يفعـــل الفأر عندما يطارده القط حتى يصل به الى ركن المكان ؟ وما يفعل القرد عندما يلحق به النمر ؟ ماذا يفعل الأضعف عندما يفقد الأمل فى النجاة ؟ انه يقفز قفزة أخيرة فى وجه القوى ، هى هجمة اليأس التى لا تخلو بدورها من خطر . لذا جئت كى أحـــذرك يا بنى . لقد أصبحت اليوم أكثر منهم قوة وأشد بأسا ، فلماذا لا تمد اليهم يدك ، تصافحهم وتصالحهم ، مع الاستمرار فى مراقبتهم والاحتراس من شرهم ؟ ماذا تريد يا بنى ؟ أن تحد من نفوذهم ؟ لقد فعلت . أن تملى عليهم ارادتك ؟ لقد أصبح هذا أمرا يسيرا . أم تريد أن تذهب الى أبعد من هــذا فتستبدل كبار الكهنة بغيرهم ؟ فليكن . لماذا لا تستبدلهم بغيرهم كى يعود الوفاق بينك وبين ديانة الدولة ؟.

— عفوا يا أماه . هل طرأ أمر جديد يدعو الى هذا القلق ؟.

— لا ونعم يا بنى .

— انى أنصت اليك بكل انتباهى يا أماه . ماذا طرأ ؟.

— لم يطرأ الجديد يا بنى . لكننى قد درست نفسية شعبنا واعرف خباياها . اننا لا نحب المغالاة فى القسوة . وان كان الشعب قد أيدك حتى الآن بعد أن عانى من الكهنة وأعمالهم ، فانه سيتوقف

عن تأييدك ان بالغت بلا مبرر فى معاقبة الكهنة . الشعب المصرى يكره الظالم فى قوته ، فاذا فقدها وأصبح ضعيفا لا حول له ، تحولت كراهية هذا الشعب الى عطف وشفقة . هذا الشعب ، على عكس غيره من الشعوب ، يساند الأضعف . ولا أنتقد شعبنا عندما أشير الى هذه الخصال ، فهى لا تدل على عاطفية ساذجة وانما على يقظة الضمير ، وانى أرجو لهذا الشعب أن يبقى على هذه الخصال وألا يتحول يوما عنها .

سألتنى ان كان قد طرأ جديد وأجبتك « لا ونعم » . لا ، لأن الأمور لم تصل بعد الى حد تحول الشعب عنك ، ونعم لأنى أصبحت الآن أخشى أن تصل الأمور يوما الى هذا الحد .

— تسألينني يا أماه لم لا أستبدل كبار الكهنة بغيرهم ، فيعود الوفاق بينى وبين ديانة آمون ؟.

— نعم . لم لا ؟.

— انى لا أريد اصلاح ديانة آمون — رع يا أماه ، وانما تحريمها .

واحتفظت الملكة الأم بهدوئها ، فلم يبد على وجهها أثر لما أحدثته اجابة ابنها من رد فعل فى نفسها .

— تحريم ديانة الدولة يا بنى !؟ ديانة الدولة التى تستمد منها شرعيتك ؟.

— واستبدالها بديانة جديدة أستمد منها شرعية أكثر .

— ولماذا استبدال ديانة آمون — رع بغيرها ، بدلا من الابقاء عليها واصلاحها ؟ ان تغيير عقائد الناس يا بنى عمل لا يتم فى جيل واحد . اقناع الناس بما لم يؤمن به آباؤهم من قبلهم عمل يتطلب قرونا طويلة . وهم يتمسكون فى الواقع بعقائدهم لا لسبب الا لأنهم وجدوا آباءهم يفعلون هكذا . فمن يعبد البقرة يعبدها لأنه راى أباه يعبدها . ومن يعبد القمر يعبده لأنه رأى أباه يعبده . العقائد والديانات لا علاقة لها بالعقل والاقناع ، وانما بالعاطفة وحدها والوجدان . تغيير العقائد عمل لا يجنى ثماره من يبدؤه ، ولكى يفرض رجل رسالته بصورة نهائية خلال حياته لابد أن تكون له من عبقرية ، من صبر واصرار وقوة احتمال ما يفوق قدرة البشر .

— ديانة آمون — رع كما هى عليه الآن غير قابلة لاصلاح يجعلها تتطابق مع ما اهتديت اليه من فكر .

— والى ماذا اهتديت ؟.

— الله واحد لا شريك له ولابد من تحريم كل ما عداه من آلهة . لقد اهتديت الى فكرة التوحيد .

ويتعجب أمنحتب لهدوء أمه ، التى لم يبد على وجهها اى أثر للدهشة .

— عفوا يا بنى ! تقول انك قد اهتديت الى فكرة التوحيد .

لكن هــذا ليس بالغريب اطلاقا ، فنحن كشعب نسعى جادين فى سبيلنا نحو هذه الفكرة منذ ألفى عام . تعــدد الآلهــة سمة من سمات الاقليمية ، فلكل قرية ولكل مدينة الهها . ومع اختفاء الاقليمية يقل عدد الآلهة تدريجيا ، فاله الاقليم المنتصر يحل محل اله الاقليم المهزوم ، بعد أن يتبنى ما كانت له من صفات يضيفها الى صفاته . لقد كان آمون فى البدء الهــا لمدينة طيبة ، وكان أقل قدرا من مونت اله المدينــة المجاورة . لكن مكانة آمون ارتفعت عندما أصبحت طيبة عاصمة لمصر ، عندما استطاع حكامها قبــل ٦٠٠ عام اعادة وحــدة الشمال والجنوب . ثم ازداد نفوذ آمون بصورة لم تحدث من قبل بعد أن استطاع حكام طيبة تحرير مصر كلها من حكم الهكسوس واعادة وحدة البلدين مرة أخــرى تحت حكم طيبة . هنــا بلغ نفوذ آمون الى حــد انتقال مقبرة الملوك من أبيدوس الى وادى الملوك حيث هى الآن ، على الضفة الغربية لا يفصلها عن معبد الكرنك غير نهر النيل .

— معذرة يا أماه ! ما علاقة هذا كله بالتوحيد ؟.

— لقد كنا ننظر الى آمون فى البداية على أنه الأوزة التى وضعت البيضة الكونية . ونتيجة هــذا التصور هما الريشتان اللتان تضعهما فى تاجك . لكن آمون ما لبث أن تقمص صــفات جديدة . فاتخذ صورة الكبش كرمز للخصوبة والانجاب ، واستمر فى اضافة صفات جديدة الى صفاته ، صفات كانت لغيره من الآلهة التى اندثرت وافسحت له الطريق كى يحل محلها ، فأصبح اله الريح واله الحرب واله النصر ، ثم اذا به يصبح الها للشمس ، واذا بنا

توحد بينه وبين رع ... فنجعل من الهين الها واحدا هو آمون — رع .

فأنت ترى يا بنى من خلال تطور ديانة آمون — رع بكل وضوح أن الفكر المصرى يتجه فى خط مستقيم نحو التوحيد . فأنت لم تهتد الى هذه الفكرة بمحض الصدفة ، وانما اهتديت اليها لأن الشوط الفكرى الذى قطعناه كشعب قد مهد لظهورها . فان كنت تظن أنك تفرض الجديد على تاريخنا ، فهذا خطأ . تاريخنا الفكرى يفرض عليك أفكارك .

— ان الله الذى أؤمن به لم يتقمص صفات غيره من الآلهة ، وانما صفاته كانت له وحده منذ الأزل . الله الذى أؤمن به لا يتحكم فى الريح والشمس فحسب ، لم يخلق الكون فحسب ، وانما هو الحب والعدل والحق فى آن واحد .

— لقد بدأ آمون هو الآخر يتميز عن غيره من الآلهة بأنه لا يرتشى ولا يمكن التأثير عليه عن طريق السحر . آمون — رع يتميز اليوم عن غيره من الآلهة بأنه اله لا نكسب رضاءه الا بالأعمال الحسنة وطلب المغفرة عما نرتكبه من ذنوب . آمون — رع بدأ يتميز عن غيره من الآلهة بأنه العادل الذى يلجأ اليه الضعفاء كى يحميهم من شر الأقوياء . تطور ديانة آمون — رع قد مهد لك الطريق . وان كانت الكهنة ترتشى وتتحالف مع الأقوياء ضد الضعفاء وتحاول أن تتقاسم معك السلطة ، فديانة آمون — رع بريئة من كل هذا . ديانة آمون — رع تطورت ، وهو تطور ليس

بالجديد فى تاريخنا الفكرى وانما تكرار لما حدث منذ آلاف السنين ، تكرار واستمرار ، وهو كما قلت لك خط فكرى واضح مستقيم .
لقد سمعت زوجتك تذكر أن أباها كان قد حدثها عن نبى عظيم ظهر فى بلاد كنعان ، كان يدعى ابراهيم ، وأنه كان أول من اهتــدى الى فكرة الخالق الذى هو الحق والعدل فى آن واحد . لكن هــذا النبى السامى كان هنا فى مصر يا بنى قبل أن يغادرها الى بلاد كنعان قبل ٦٠٠ عام بعد أن وصل أمنمحات الأول الى حكم البلاد .
فهل كانت مصادفة يا بنى أن يهتدى بعد أن أقام بيننا وقرأ ما كتبناه وتعلم ما وصلنا اليه ، هل كانت مصادفة أن يهتدى هــذا النبى الى فكرة التوحيــد ؟ ان بلدنا مهــد الأنبيــاء ، وان كانت غيرنا من الشعوب لا تحب سماع هــذا ، فهى الحقائق ، لم نبتدعهــا ولم نخترعها . انصت يا بنى الى ما كتبه الملك اختيوس فى وصيته السياسية ، وذلك قبل مجىء النبى ابراهيم الى بلادنا بمائة عام .

يا بنى :

ان كنت تريد لنفسك نصبا تذكاريا

فلا تصنعه من الحجارة

وانما من حب النــاس لك

فهــذه الحيــاة قصيرة فانية

وما أسعد من يتذكره الناس بعد موته بالخير

كن عادلا

ولا تقتل

فليس فى القتل ربح

كن راعيا طيبا

واجعل من عدالة الخالق

مثلك الأعلى

الله الذى خلق السموات والأرض

خلق الانسان والحيوان والنبات

كن راعيا طيبا

فالله يسمع أنين الناس

عندما يبكون من ظلم الحاكم .

— لقد حفظت وصية اختيوس عن ظهر قلب يا أماه !.

— اعزل الكاهن الأعظم وضع مكانه كاهنا تثق فيه ، واجعل من آمون — رع الها واحدا ، على الا تحرم على الناس عبادة غيره من آلهة ، فالدين لا علاقة له بالعقل والاقناع وانما بالعاطفة والوجدان ، ونشر العقائد يكون بالحسنى ولا يكون بالارهاب .

— أجعل من آمون — رع الهـا واحـدا ؟ لمن يا أماه ؟.

— للشمال والجنوب . لمصر بأكملها .

— اننا لسنا وحدنا فى هـذا العالم يا أماه . وما دمنا نريد التوحيـد ، فلماذا نفكر فى المصريين دون غيرهم من شـعوب . ما دام الله واحدا لا شريك له ، فهو رب للبشرية جمعاء .

— ماذا تعنى يا بنى ؟.

— الله واحد لا شريك له ، خلق المصريين كما خلق غيرهم ، يعبده المصريون كما يعبده غيرهم من شعوب .

— أنت لا تريد اذن لمصر أن تكون لها شخصيتها المميزة لها ؟.

— أهم ما يميز شخصيتنا هو صنع الحضارة وارسال النور ، لكن الحضارة التى تضع شعبا فوق شعوب أخرى ليست جديرة بهذا الاسم . قمة حضارتنا ومجدنا هى أن نعلن على الدنيا بأنفسنا وبمحض اختيارنا أننا لسنا خيرا من غيرنا .

كيف أجعل من آمون الهـا واحدا يعبده الجميع وقد كان فى البداية الهـا اقليميا لمدينة مصرية ؟ كيف أنتظر من الشـعوب الأخرى أن تؤمن بمثل هـذا الاله ؟ الله الذى أؤمن به لم يتطور مع مرور السنين ، وانما كان منذ الأزل ، وسيبقى الى الأبد .

— أنت عازم اذن على تحريم ديانة آمون — رع ؟.

— سأغلق المعابد وسأقيم عاصمة جديدة فى منتصف المسافة بين طيبة وممفيس أطلق عليها اسم مدينة آتون ، أقيم بها قصراً ملكيـا يكون اسمه بيت الصـدق وسأغير اسـمى من أمنحتب الى اخنـاتون .

— هو قرار لا رجعـة فيه ؟.

— هو ايمان أقوى من ارادتى .

وتعود تى — يا الى الصمت لحظة ، ثم تقول :

— لكننى لن أبارح طيبـة نهائيـا ، وانما سأقسم وقتى بين طيبة والعاصمة الجديدة ، كى أراقب ما يحدث هنـا وأكون وسيطا ان اقتضى الأمر ..

— لا بأس من هـذا يا أماه ..

— انى أتمنى لك النجاح فيما أنت ساع اليه .

وهمت الملكة الأم بمغادرة قاعة العرش ، لكنها اسـتدارت فجأة لتقول :

— واحترس جيدا يا بنى ، فما زال للكهنة رغم كل ما حدث بأس ونفوذ !.

— انى فاعل . وشـكرا لك يا أماه .

٧ — التوحيـــد

وكان للكهنة رغم كل ما حدث بأس ونفوذ . فان كان الشعب قد التف حول الملك ، فان كبار التجار والسماسرة والاقطاعيين يساندون الكهنة ، ثم انه كانت هناك مجموعة جديدة قد انضمت لأولئـــك وهؤلاء ، وهم رجال الادارة التى قام أمنحتب بعزلهم من وظائفهم أثناء حركة تطهير واسعة ، أطاحت بكل اللصوص .

نعم كان للكهنة ولأصدقائهم رغم كل ما حدث بأس ونفوذ ، فقرروا الهجوم على الملك بعد أن فقدوا كل أمل فى عودة الأمور الى ما كانت عليـــه ، لكنه هجوم اليائس . حاولوا انزال الملك عن العرش فباءت محاولتهم بالفشل ، أما الملك وانصاره فقد رأوا فى هذه الخيانة مبررا لاغلاق المعابد ، فأغلقوها ، وكانت مبادىء الديانة الجديدة ، ديانة آتون ، قد تبلورت واتضحت . فأعلنوها .

أعلنوها لا على الشعب المصرى وحده .

وانما على الدنيـــا بأسرها .

وكانت هذه أولى سمات الديانة الجديدة ، ميزتها عن كل ما سبقها من ديانات .

عقيدة آتون ليست عقيدة اقليم من أقاليم مصر .

وهى ليست عقيدة لمصر وحدها .

وانما هى ديانة جديدة للامبراطورية المصرية بكافة أرجائها ، تلك الامبراطورية التى وصلت حدودها منذ حكم تحتمس الثالث، الى اعالى الفرات فى الشمال الشرقى والى السودان فى الجنوب .

آتون ليس الهـا لطيبة دون ممفيس .

ليس الهـا لمصر دون السودان .

ولا فرق بين مصرى وسورى أمام الذات الالهية .

هى ديانة أممية ذات خلفية سياسية هامة ، فاخناتون يكره الحـرب .

الحروب مجازر وحشية بربرية .

الحروب جرائم قتـل جماعية .

تحت شـعارات زائفـة .

وما هـدف الحرب ؟.

الانتصـار ؟.

لكن هل هناك انتصارات ؟.

وهل هنـاك هزائم ؟.

اخناتون تعلم من ابن حابو أن التاريخ يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الانتصارات تتحول الى هزائم والهزائم الى انتصارات ، ومن يحتل أرض الآخر بالسلاح ، يعود فيفقدها هاربا أمام السلاح ، وما هو الا سـفك مجنون للدماء .

اخناتون يسـعى للوصول الى استقرار دائم بالامبراطورية المصرية .

استقرار قائم على عقيـدة واحـدة واله واحـد تؤمن به كل الشعوب على اختلاف لغاتها .

ابيض البشرة فى شمال سـوريا .

وقمحى اللون فى مصر .

والأسـود فى السـودان .

اخناتون يبحث عن سياسة تعايش قائمة على الحب والعدل والحق ، تضمن استقرار السلام فى عالمه .

ميلاد ديانة آتون كان اذن عملا سياسيا .

ففى مجال السياسة الداخلية كان الهدف هو القضاء على نفوذ الكهنة وما ترتب عليه من فساد .

اما فى مجال السياسة الخارجية فكان الهـدف هو ضمان ترابط أجزاء الامبراطورية دون اللجوء الى الحرب والسلاح .

لكن من هو ذلك الاله الذى يمكن اقناع كل الشعوب بوجوده وضرورة الايمان به ؟.

لم يكن هناك غـير اله واحـد .

هو خالق الكون .

لا يوجد ما يرمز الى عظمته غير معجزة الخلق نفسها .

ونظـام الكون .

ولا يوجد أى شىء يمكن أن نقارنه به .

غـير النـور .

الله نور السموات والأرض .

نعـم النـور .

الله هو الذات العليا التى خلقت الشمس .

بارادته تظهر الشمس كل صباح فى الشرق .

وبارادته تختفى الشمس كل مساء فى الغرب .

والشمس لا تشرق وتغرب فى مصر وحدها .

وانما فى كل أنحاء العـالم .

الشمس لا تمنح الدفء والنور للمصريين وحدهم .

وانما لكل الشـعوب .

الشمس خلقت للجميع .

أفليس من السهل ومن المنطقى أن يعبد الجميع خالقها ؟.

آتون هو الاسم الذى أطلقه الملك على ديانته الجديدة .

ديانة الخالق .

الذى خلق كل شىء .

الانسان والحيوان والنبات .

وخلق لكل شىء ما يحتاج اليه .

اله اخناتون هو المطلق .

الذى لا حدود لعظمته .

لا ترسم له صورة ولا يصنع له تمثال .

لا نراه ولا نستطيع أن نلمسه .

لكنه موجود فى كل وقت وفى كل مكان .

هو الذات التى تحرك قرص الشمس .

الشمس التى تراها كل الشعوب .

أليست هذه الذات هى خير من يوحد هذه الشعوب فى أمة واحدة ؟.

هى اذن ديانة أمميـــة .

لكن جذورها مصرية .

فمصر ليست كما ادعى هـــيرودوت ، وكما نردد قوله دون أن نتريث ونجد بأنفسنا الوصف اللائق لبلادنا .

مصر ليست هبـــة النيـــل .

فالنيـــل كان يجرى من الجنوب نحو الشـــمال منذ ملايين الســـنين .

دون أن يكون لمصر وجود .

مصر هبـــة الشمس .

والمصريون كانوا يعلمون هذا خيرا من هيرودوت ، فمنحوا الشمس منذ بداية حضارتهم مكانة فى فكرهم لم يمنحوها للنيـــل . لقد كانت مصر حتى نهاية العصر الجليدى الأخير مغطاة بالميـــاه . مياه النيل ومياه الأمطار .

وكان المصريون يعيشون أثناء العصر الجليدى الأخير على سفوح مرتفعات الصحراء الشرقية وفى مغاراتها .

احتماء من المـــاء .

فلما انتهى العصر الجليدى وازدادت حرارة الشمس تدريجيا بدأت المياه تنحسر وتحولت المستنقعات تدريجيا الى أرض سوداء خصبة .

عندئذ فقط وبفضل اشـــعة الشمس .

نزل المصريون الأول من ســـفوح المرتفعـــات الى الأرض الســـوداء .

عندئذ فقط وبفضل الشمس .

ظهر وادى النيـــل .

وانتقـــل المصريون بالبشرية .

من العصر الحجرى .. عصر الصيد .

الى عصر الزراعة والحضـــارة .

فكانوا أول شـــعاع لهـــنا .

مصر هبـــة الشمس .

لم يهب النيـــل مصرا فى البداية .

وانما ضمن لهـــا البقـــاء .

لذلك كانت عبادة رع اله الشمس فى هليوبوليس وممفيس .

وعبادته قبل هليوبوليس وممفيس .

الديانة الجـــديدة .

لهـــا جذورها الضاربة فى أرض مصر .

وفى تاريخ مصر .

لكنها ديانة أممية ..

لا تفرق بين المصريين وغيرهم .

وهى — أولا وقبـــل كل شىء —

ديانة التوحيـــد .

اخناتون يحرم كل الآلهـــة .

ولا يعترف الا بوجود الارادة العليـــا .

ارادة خالق الكون .

التى تحرك قرص الشمس .

الله واحد لا شريك له .

العـــدل ارادته .

ارادة واضحة فى الكون ونظامه .

فالشمس عندما تبعث بنورها .

عندما توزع أشعتها على البشر .

لا تنعم على الغنى وتضن على الفقير .

لا تجود على القوى وتبخل على الضعيف .

وانما يتساوى الناس أمام نورها ودفئهـــا .

ديانة التوحيد الجـــديدة .

ديانة حب وتآخ ومساواة .

ديانة عدل .

لا تعرف فرقا بين صاحب الجاه .

ومن لا حول له .

لا تعرف فرقا بين عنصر وعنصر .

وانما المساواة بين الشعوب والأفراد .

سواسية كأســـنان المشط .

هى عقيدة للدنيا .

مصدرها مصر .

واخناتون يعلم أن الشمس كما حولت المستنقعات الى أرض صالحة للزراعة ، فهى أيضا تحول الأرض الصالحة الى صحراء ، والأنهار الى أحواض جافة .

لذلك تحيطها فى تصوره بمظلة .

هى مظلة رع المروحية .

ترشـــح أشعتها .

فلا يؤذينـــا لهيبهـــا .

اخناتون يتغاضى عن شر الشمس لأنه يعلم أن النيـــله

وان لم يكن قد وهب مصر

فهو يحميها من الجفـــاف

ويضمن لهـــا البقـــاء

الله واحـــد لا شريك له

تجـــريد لتجـــريد

قوة روحانيـــة

تمـــلأ الكون

وهى شرط للحيـــاة

الله واحـــد

لا يوجد ما يحول بينه وبين ما يريد

يملك كل شىء

لكنه لا يمتلك

هو اله الحق

يحب الصـــدق

ولا يمقت شـــيئا

مثل الكذب والنفـــاق

وهو يرى ما بالنفوس

فالكذب عليه لا يجـــدى

والســـــحر لا ينفع

وانما قول الحق

والاعتراف بالاثم

وطلب المغفرة

فلم تكن ديانة آتون ديانة جديدة فحسب

وانما كانت

ميـــلادا للضمير

كانت ميـــلادا للضمير

لأن الضمير الانسانى بدأ

عندما أيقن الانسان

أن الله يراقب أعماله

عندما تعلم ألا يرتكب الخطيئة

لا خوفا من عقاب البشر

وانما لأن هنـــاك الهـــا

يرى ويســـمع كل شيء
لا يحب الظلم ولا يحب الشر

هنـــا فقط
عندما أصبح الانسان وجهـــا لوجه
مع من يعلم كل شيء
هنا فقط كان ميلاد الضمير

ديانة أتون ذات حس مرهف
تجاه الآلام التى يسببها الانسان للانسان
وهى تبحث عن نهاية لهـــذه الآلام .

لأن رب الأبدية
هو اله الحب
هو الواحد لا شريك له
والسبيل الى الايمان به
هو التأمل فى الطبيعة
فى معجزة الخلق

٨ — الحياة والفكر

ويختار الملك لعاصمته الجديدة منطقة عذراء لم تكن بها مدينة من قبل أو قرية ، لم يقم بها ملك قبله ، ولم يعبد فوقها اله غير الهه ... قطعة صغيرة من أرض مصر لا يزيد طولها على ٨ كيلو متر ولا يبلغ عرضها أكثر من كيلو متر ونصف ... قطعة من أرض هذا البلد الذى ان قارنته بغيره من البلاد وجدته أقل منها جمالا . فأين هى الجبال التى تكسوها الغابات الخضراء وتتوج قممها الثلوج ؟ أين هى الشلالات والوديان والجداول والبحيرات ؟ ومع ذلك ...

مع ذلك فان طبيعة مصر ، هذه الحقول المنبسطة وما يحيط بها من صحراء ، هذا النخل على شاطىء النهر وهذه الزوارق الشراعية فوق مياهه ... طبيعة مصر رغم بساطتها تستولى على العاطفة وتستحوذ على الفؤاد دون أن ندرى لماذا ، نعجب بها ونحبها ونحار فى سر اعجابنا وحبنا ... وكأن هذه الأرض التى آوت مئات الملايين ممن صنعوا الحضارة وأيقظوا الضمير ... كأن هذه الأرض لم تستوعب أجسادهم فحسب ، وانما تشبعت بكل أفكارهم وأسرارهم ... هذه الرمال تتحدث ، وحديثها يتناهى لكل من ينصت اليها فى اجلال وخشوع ، فينفذ الى أعماق الحس ... الى الوجدان .

يختار الملك هذه القطعة من أرض مصر ، تحيط بها هضاب الصحراء شرقا ويحدها النيل غربا ، والملك يعلن أنه لم يكن حرا فى اختيار المكان . وانما هو الاله الأعلى الذى أوحى اليه بأن يقيم مدينة هنا ، وهنـــا فقط .

ويبـــدأ البناء . جيش ضخم من مهندسين وعمال وصـــناع وفنانين . يبدأ البناء لينتهى بعد عامين لا أكثر ، فتصبح مدينـــة آتون معجزة جديدة من معجزات الحضارة المصرية .

وما تبقى من آثار المدينة يدل على انها خططت على اسس عقلانية ، لا يختلف فيها بيت عن الآخر ، سواء فى مساحة أرضه أو فى هندسته المعمارية . وهى أول مدينة فى مصر وربما فى العالم بأكمله لا يشتمل فيهـــا كل بيت على حمام فحسب ، وانما أيضـــا على مرحاض . وهى أول مدينة فى مصر وربما فى العالم كله ينشأ بها نظام دقيق للمجارى ، لصرف الميـــاه القـــذرة ، وذلك ضمانا للنظافة وصحة الســـكان .

وكان القصر الملكى يقع فى وسط المدينة على طول الشـــارع الرئيسى ، يربطه بدار الحكم الذى يقع على الجانب الآخر كوبرى أقيم فوق الشـارع ، وهو كوبرى له سقف وحيطان ونافذة يتوقف الملك أمامهـــا فى طريقه من القصر الى دار الحكم ، فيلوح بيديه للشعب الذى كان ينتظره ليحييه . ولم تكن هـــذه هى الفرصة لرؤية الملك ، فعربته كثيرا ما تسير خلال شوارع المدينة ، فيراه الناس داخلها ممسكا بيد الملكة .

أصبحت مدينة آتون حقيقة بعــد أن كانت حلما ، وأقسم الملك الا يبارحها مدى الحياة وألا تجتاز قدماه حدودها .

انتهى بناء هيكل المدينـــة بعــد عامين لا أكثر ، وبدأ الملك وأنصاره يبثون الروح فى هذا الهيكل .

عاصمة مصر الجديدة معبــد كبير ، وملك مصر هو نفسه كبير رجال الدين ، والعبادة فى هذه المدينة هى الحياة نفســها ، والحيــاة نعيم .

فكما تفتح المعابد أعلاها أمام أشعة الشمس ، فهى تفتح أعماقهــا أمام أفراد الشعب ، فمن حق الشــعب ، ولأول مرة فى تاريخ مصر ، أن يدخل محراب الاله الأكبر بعد أن كان هذا الحق مقصورا من قبل على الملك وكبير الكهنة .

الحياة عبادة ، لأن القصور معابد ، لما يحيط بها من جنــات وعيــون ، من حــدائق وأحواض . والخالق لم يخلق الزهــور والأشجار ، لم يخلق الهواء والماء فحسب ، وانما خلق أيضــا الطير والأسماك ... الحيوانات تجرى خلال هذه الحدائق فى أمن وسلام ، والطير تحلق فى الهواء ، والأسماك تسبح فى الماء ... ومن يعيش فى هذه القصور لابد له أن يتأمل فى كل هذا ، فى معجزة الخلق ، فى جمال الخلق ، ففى هذا التأمل عبادة للخالق ، وفى هذه العبادة الحياة ، وما أروعها من حيــاة !.

الروح التى بثها الملك فى مدينته تلخصت فى عبادة الواحد والعودة الى الطبيعة ... والعودة الى الناس ...

العودة الى الناس بعد ما أصاب ديانة آمون ـــ رع من جمود .

عودة الى الشعب الذى بدأ اخناتون ينتقى من بين أبنائه المخلصين والأكفاء ليضعهم فى أعلى مناصب الدولة ...

عودة الى الشعب الذى من اجله بدأ الملك يغير المراسم ويجعلها أكثر بساطة عن ذى قبل .

عودة الى الشعب الذى أصبحت اللغة الرسمية للدولة قريبة جدا من لهجته الدارجة .

الى النــــاس .

لا للشعب المصرى وحده وانما لكل الشعوب .

فما وجد من نصوص فى تل العمارنة ، حيث كانت مدينة آتون ، لا ينم عن تقارب كبير بين اللغة الرسمية واللهجة الشعبية فحسب ...

وانما تتضمن تلك النصوص أيضا مفردات كثيرة دخيلة على اللغة المصرية ، تشهد بتواجد الكثيرين من الأجانب بالعاصمة آنذاك وتثبت أن هؤلاء كان لهم من العدد والنفوذ ما سمح لهم بترك آثار واضحة فى اللغة الرسمية .

وكأن بين التوحيد والمساواة ، المساواة بين أفراد الشعب والمساواة بين كل الشعوب ، كأن بين التوحيد والمساواة صلة وطيدة ، وكأن الذين يتراءون ويتظاهرون بالايمان ، دون الاكتراث بالمساواة بين الناس ، كذبة منافقون ...

كما فتحت عاصمة مصر الجديدة أعلاها أمام النور وأعماقها أمام الشعب ، فقد استقبلت أيضا بترحاب أبناء المستعمرات من سوريين وميثانيين وحيثيين وعبرانيين وغيرهم ... رحبت بهم فعاشوا بها على قدم المساواة مع المصريين ، فهم لا يشتغلون بالتجارة فحسب ، ليسوا عمالا وصناعا فحسب ، وانما أتيحت لهم الفرصة كى يصبحوا موظفين بالدولة ، ووصل أحدهم ، وهو السورى توتو ، الى مركز مرموق .

والملك ليس بعيدا عن أولئك وهؤلاء .

الملك قريب منهم قرب أشعة الشمس .

لقد اختاره الهه دون غيره فتحدث اليه ... هذا صحيح .

لكنه مع ذلك ليس الها كما كانت الملوك من قبله ... وانما انسان .

وهو معلم يتحدث الى أتباعه ويشرح لهم مبادىء العقيدة الجديدة ويتناقش معهم ...

وهو معلم صادق ، لا يكتفى بالكلام ، وانما يريد أن يكون فى سلوكه الشخصى قدوة يحتذى بها أتباعه ، يريد أن تكون حياته مثلا لغـــيره ...

الملك زوج محب يعانق زوجته أمام الشعب .

أب يلعب مع أطفاله مثله فى ذلك مثل كل أب .

الملك ليس بعيدا عن الناس ... ليس الها مبهما غامضا .

والروح التى أراد أن يبثها فى مدينته ... هى روح الحب والوئام .

ولم تكن عاصمة مصر الجديدة عاصمة الحروب .

كانت عاصمة الفكر والفلسفة والفن .

الفن الذى أولاه الملك اهتماما خاصـــا ، فأخذ فى حديثـــه مع الفنانين يحثهم على تصوير الطبيعـــة والحيـــاة ، ويحضهم على البعد عن أي رسومات تمجد الحرب أو الصيد .

وكما أخطأ هيرودوت عندما وصف مصر بأنها هبة النيل ، فقد أغفل أيضـا كافة المؤرخين الذين تحدثوا عن فن تل العمارنة أنه كان نقطة تحول هامة فى تاريخ الفن . فالفن المصرى كان حتى هذه اللحظة مرتبطا ارتباطا وثيقـــا بالسحر . النحات فى اللغـــة المصرية القديمـــة كان يسمى « من يضمن استمرار الحيـــاة » ، ذلك أن هنـــاك اعتقـــادا من اعتقادات السحرة فحواه « اصنع

للانسان صورة أو تمثالا ، ثم افعل بصورته او تمثاله ما تريد ، وسيحدث للانسان ما يحدث لصورته » النحات المصرى كان يصور الرجل دائما وهو فى أوج قوته وشبابه ، فان كان هـذا الرجل هو الملك نفسه ، منحه النحات حجما يفوق حجمه الطبيعى ثم جعل له وجها جميلا قد ارتسمت عليه ابتسامة هادئة مطمئنة ، ويكفينا أن نقارن أنف رمسيس الثانى كما نراها فى جثته المحنطة بأنف رمسيس الثانى كما تبدو فى تماثيله الكثيرة . ثم ان النحات المصرى كان يختار لتمثال الملك صخور الجرانيت ، كل هذا للاعتقاد الثابت بأن مصير الملك بعد موته مرتبط بمصير تمثاله ، فمادام التمثال باقيا ، فسيعود الملك الى الحياة ، فاما أن تعود روحه الى جثته واما أن تتخذ من تمثاله سكنا لها .

وما زالت هناك بقايا من هذه الأفكار حتى يومنا هذا عندما تقام التماثيل للملوك والقـادة « لتخليد ذكراهم » . وهـذا الارتباط بين الفن والسحر كان على أغلب الظن هو الدافع الحقيقى لتحريم تصوير الانسان فى اليهودية والاسلام .

لكن اخناتون فصل الفن عن السحر عندما أمر بأن يكون الفن واقعيا يصور الحياة ، فلم تنحت له تماثيل مثـل تماثيل تحتمس من قبله وتماثيل رمسيس من بعده ، تلك التماثيل التى يمكن استبدال أحدها بالآخر ، فلا فرق بين رأس تحتمس الثالث ورأس رمسيس الثانى ، وانما هو دائما نفس الوجه المتكامل الجمال ، وهى دائما نفس النظرة الى الأفق البعيد .

وخير ما يوضح لنا أفكار اخناتون فى مجال الفن هو حديث دار بينه وبين الملكة الأم بالعاصمة الجديدة ، لم نعثر عليه كاملا ، فلا ندرى كيف بدأ وكيف انتهى ، لكنه مع ذلك خير دليل على ما وصل اليه الفكر المصرى فى هذا العصر من تقدم منقطع النظير .

اخناتون : انه المذهب الواقعى الجديد يا أماه ، يصور الانسان كما هو ، كما خلقه الله ، ذلك حبا فى الطبيعة . وافتتانا بمعجزة الخلق . لقد أردت أن يصور الفنان الانسان فى حياته اليومية ، الانسان وهو يعمل ، وهو يلهو ، وهو يأكل ، وهو يضحك ، وهو يتألم . وقلت للفنانين أن يصورونى هكذا . الله هو الذى ألهمنى بذلك . فما دامت للانسان انفراديته أمام الخلق ، مادام الخالق يعلم ما بنفس كل انسان ، ولا يخلط بين انسان وآخر ، فعلى الفن أيضا أن يميز بين وجه ووجه ، وعلى الفنان ألا يراعى فى هذا التمييز الفروق بين معالم الوجه فحسب ، وانما عليه أن ينظر الى الوجه كمرآة للنفس فيرسم معالم الوجه وقد انعكس عليها كل ما يفتعل فى نفس الانسان .

الملكة الأم : مع احترامى واجلالى للديانة الجديدة اسمح لى يا بنى أن أضيف ملحوظة صغيرة لحديثك عن الفن الواقعى . أن للفن الواقعى جذورا ضاربة فى أرض مصر وتاريخها . لقد كان الفنان المصرى قبل الألف سنة الأخيرة مولعا بتصوير الحياة اليومية للناس ، الفنان المصرى ، رساما كان أم نحاتا أم نقاشا ، صور الكاتب الجالس متربعا ، حينا بشعره الطبيعى وحينا بشعره

المستعار ، الفنان المصرى صور الموسيقار وهو يعزف حينا على هذه الآلة وحينا على تلك ، صور شيخ البلد ممسكا بعصاه ، صور صانعة الخزف والعجانة ، الرجال وهم ينزعون سيقان البردى من الأرض ، الرعاة وماشيتهم ، صيادى الطير وهم يتصيدون ، وصيادى السمك وهم يجذبون شباكهم ، والعمال وهم يعصرون العنب لصنع النبيذ ، جنود الجيش وحاملى القرابين ، الحياة فى المنزل وفى المنسج ، فى مصنع الجعة وفى المخبز . الواقعية كانت فى بداية تاريخنا سمة من سمات الفن المصرى ، لكنها اختفت بعد ذلك وحلت محلها أساليب فنية أخرى ، وهو أمر يؤسف له حقا .

اخناتون : وحلت محلها هذه التماثيل التى تصور الانسان لا كما هو عليه ولا كما خلقه الخالق ، وانما هى وجوه لا وجود لها ، اخترعها الفنان اختراعا ، وصورها على أجمل ما يمكن أن تكون عليه . وهى تماثيل لا يميزها عن بعضها غير ما نقش عليها من أسماء أصحابها . لكننا مع العودة الى الشمس ، الى اله الشمس التى كدنا أن نصل اليه فى بداية تاريخنا عندما كنا نعبد الشمس دون أن ننظر اليها على أنها رمز ليس الا . . اقول يا أماه اننا مع العودة الى اله الشمس نعود مرة أخرى الى الواقعية فى الفن .

الملكة الأم : هذا أيضا صحيح يا بنى . لكن اسمح لى مرة ثانية بملحوظة صغيرة . فى بداية تاريخنا لم تكن هناك فجوة

بين الملك والشعب ، وبالتـــالى لم تكن هناك فجوة بين الفنـــان وبين الشعب . ولم تكن قد ظهرت بعـــد تلك الفئـــة من الفنانين التى تتعالى على الشعب ولا تدرى شيئا عن حيـــاة النـــاس . لكن الملك ابتعد عن الشعب ، أصبحت بينه وبين الشعب مسافة أخذت تتسع ، ومع ابتعاد الملك عن الشعب ، ابتعد الفن أيضا عن الشعب . ان من عادة الشعب عندما تتاح له فرصة الابداع أن يكون واقعيا ؛ والواقعية من سمات الانتاج الفنى ، عندما يكون الفنـــان على اتصال بالشعب .

أخناتون : وهأنذا يا أماه أعود الى الشعب مرة أخرى . لقد تركت فنانى طيبة فى طيبة ، وأعطيت لكل ذى موهبة من أبناء الشعب فرصة الانتـــاج الفنى ، فعادت الواقعيـــة الى الفن ، وعاد الفن الى عبادة الواقع ، الى تأمل الخلق والطبيعة . ان ارادة الاله كامنة فى نفوس الناس ، فهم يفكرون بسليقتهم كما يريد لهم الاله أن يفكروا ، الله يطلب من النـــاس أن تتأمل معجزة الخلق من طبيعة كائنة تغيرنا ونغيرها كل يوم ، فنحن معها فى حوار دائم متصل . هذه ارادة الله ولا يريد الشعب شيئا آخر .

الملكة الأم : ان أردت الحقيقة يا بنى ، وجب علينا أن ننصف أباك ، فهو الذى عاد الى الشعب عنـــدما تزوجنى أنا ، ابنـــة الشعب . لقد فكرت كثيرا فى كل ما حدث من تطورات منذ اعتلائك للعرش ، وأظننى مسئولة عن الكثير منها . عندما تزوجنى أبوك كان فى هذا خروجا منه على التقاليد وتحديا للكهنة والارستقراطية .

ولم يكتف أبوك بأن تزوجنى ، وانما قام بنقـل القصر من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية جنوب طيبة وكانت هذه بداية البداية .

نعم أنا المسئولة . فعندما تزوجنى دخلت معى الى القصر لهجة الشعب ، تلك اللهجة التى تعودت على سماعها منى وأنت طفل رضيع فأصبحت فى أذنك كالموسيقى تحبها لحبك لى ، واظن أنها السر فى حبك للشعب ، فقد أصبحت دون أن تشـعر تحب كل من يتكلمونها . وهأنتذا الآن تستخدمها فى النصوص الرسمية للدولة .

عندما تزوجنى أبوك كان ذلك عودة الى واقع مصر ، واقع الحيـاة والشعب ، ما لبث أن انعكس فى الفن . وهأنتذا تكمل ما بدأ ، لكنك تخطو خطوات سريعة ولا تتمهل .

انى كلما ذهبت الى طيبة سمعت الكثيرين يتهمون نفروتيتى بأنها المسئولة الوحيدة عما يحدث . لكن هذا خطأ . أفكارك كلها أفكار مصرية ، وكل ما يحدث الآن له جذوره فى تاريخنا . والذين يتوهمون فى طيبـة أنهم يدافعون عن التقاليد خاطئون ، فثورتك ليست ثورة على تقاليد مصر وانما هى ثورة من اجل هذه التقاليد ، وهى عودة اليها . وأعداؤك لا يدافعون عن تقاليدنا الحقيقية ، وانما عن تقاليدنا بعد أن شوهت وزيفت . لكنك يا بنى لا يمكن أن تتوقع منهم أن يدركوا كل هذا وبهذه السرعة .

اخناتون : لكن الواقعيـة التى أريدها هى واقعية رمزية يا أماه .

الملكة الأم : كم وددت أن أفهم ذلك يا بنى ، لقد عزمت مرة على سؤالك ، لكننى عدت فأحجمت . لماذا يعطون لصورتك هذا الشكل الأنثوى ؟ ولماذا هذا الوجه المستطيل ؟.

اخناتون : لقد لاحظت يا أماه أن كل الأنبياء كانوا رجالا ، وفى هذا تمييز لنصف البشرية على نصفها الآخر . ولقد فكرت كثيرا فى سر انجذاب الرجل للمرأة وانجذاب المرأة نحو الرجل ، وأظن أنهما كانا فى بداية الخلق وحدة هنيئة سعيدة لا ينقصها شىء ولا تبحث عن شىء ، وأظن أن هذه الوحدة قد انقسمت فيما بعد الى نصفين هما الرجل والمرأة ، نصفين لا يصل أحدهما الى قمة سعادته الا عندما يتحد مرة أخرى بالنصف الثانى ، لذا رأيت أن تجمع صورتى صفات الجنسين ، فلا أميز جنسا على الآخر وأكون رمزا الى عودة الهدوء والرضا الى النفس البشرية التائهة الحائرة . ثم انى أريد بعد ذلك أن يرمز ازدواج الجنسين فى صورتى الى أنى أب وأم لشعبى فى آن واحد . أما عن وجهى فقد رأيت أن يرسم مستطيلا كى يرى الآسيويون فيه ملامح آسيوية ، فأنا لا أخاطب المصريين دون غيرهم من الشعوب ، ولا أريد أن يكون وجهى رمزا لشعب دون غيره . لقد قلت للفنانين أن ما ترمز اليه عيناى أهم بكثير من عينى نفسها ، فأبرعوا فى اظهار استعدادى للتضحية ، وهو تعبير يختلف كل الاختلاف عن تعبير من يريد أن يضحى بنفسه فى حرب أو قتال ، انه استعداد للتضحية من أجل مثل أعلى . هذه هى الواقعية الرمزية ، هى تصور ارادتنا

وعاطفتنا ، لا ترسم الشكل الخارجى فحسب ، وانما تجعل من الشكل رمزا للنفس .

الملكة الأم : شكرا يا بنى ، فلقد فهمت الآن ما تعنيه . لكننى مع ذلك لا أخفى عليك أن نفسى لا تهفو الى رؤية هذه الأعمال الفنية الجديدة . انى أرى قوامك كما خلقه الخالق أكثر كمالا من تلك التماثيل ، أرى وجهك أكثر حسنا منه فى تلك النقوش والرسومات . تقول انها الواقعية الرمزية ، لكننى أرى الرموز قد طغت أحيانا على الواقع . وان كنت أستمتع أحيانا بما يبدعونه من صور خلابة للطبيعة ، فانى أشعر بنفور مما يصنعون لك من صور ، تماثيل كانت أم رسومات .

اخناتون : الفن لم تكن غايته يوما ارضاء حاجة الانسان لرؤية الجمال . من يبحث عن الجمال ، يراه فى الطبيعة . عمل الفنان ليس خلق أشكال جميلة ، والفن الواقعى الرمزى لا يخاطب الحواس . وكما ان وسيلة الأدب فى التعبير عما بنفس الانسان هى الكلمات فان وسيلة الرسم هى الخطوط والألوان . هذا هو الفرق الوحيد بين الأديب والرسام . الرسام لا يرسم لكى يقول من يرى رسوماته انها جميلة ، الفنان يريد أن تعبر لوحته عن فكرة معينة ، وأن تنتقل هذه الفكرة لمن يتأملها ويمعن التأمل فيها ، وهذا هو فى الواقع المعيار الذى نفرق به بين الفن والفن الرخيص .

تقولين يا أماه ان الرموز قد طغت على الواقع . قد يحدث هذا فى رسم أو فى آخر . لكننى انبه الفنانين دائما الى الاهتمام بالواقع ، وقد أمرت بانشاء ورش واستديوهات لهذا الغرض . وبدأ الفنانون فى طباعة وجوه الموتى والأحياء فى الجبس ، ودراسة هذه الأقنعة الجبسية ، التى تمكنهم من صناعة قوالب واكليشهات قائمة على أساس تحليل دقيق لمعالم وجه الانسان . الى هذا الحد وصل اهتمامنا بالواقع يا أماه .

بهـذه الكلمات تنتهى لفافة البردى التى عثرنا عليهـا . وكما شعرت الملكة الأم بالنفور من الواقعيـة الرمزية فى الفن ، فان الشعب هو الآخر قد أنكر على الملك أن يسلك سلوك غيره من البشر ، فالملك ابن الاله الأعظم على اختلاف أسمائه ، الملك ابن رع أو ابن آمون أو ابن آمون ـ رع ، الملك اله ابن اله وصلته بأبيه هى التى تضمن مجىء مياه الفيضان فى ميعادها ، ألوهيـة الملك ضمان لبقاء الخير فى مصر . لكن اخناتون ـ أهو حق اله ؟ وان كان الها فلماذا يعيش كما يعيش غيره من البشر ؟ انه يلعب مع أطفاله ويعانق زوجته أمام الملأ . أهكذا تفعل الآلهة ؟ الشعب المصرى لم يكن يطيع الملوك لأنهم الملوك ، وانما لايمانه حينذاك بأن بينهم وبين الآلهة صلة وطيـدة ، لكن اخناتون ـ ان لم يكن الهـا ـ فلماذا اذن طاعته ؟.

وما معنى كل هذه الرسومات والتماثيل التى تصور الملك والملكة حينا أثناء تناول الطعام وحينا آخر وقد تجردا من ملابسهما ؟

وما معنى هذا الازدواج الجنسى ؟ انه فكرة من تلك الأفكار التى لا تجد عند الشعب أى تعاطف أو فهم ، بصرف النظر عن صحتها أو عدم صحتها .

أراد الملك لن يعود الى الشعب ، فاختار الواقعية الرمزية أسلوبا للفن ، لكن الشعب نفسه وجد فى هذا الأسلوب تشويها لفكرة ألوهية الملك . اراد الملك أن يتقرب من الشعب ، فابتعد الشعب عنه . النيــة الصادقة وحدها لا تكفى ، وهــذه مأساة من مآسى الوجود ، النية الصادقة لا تكفى ، وانما علينا أن نحترس جيدا فى اختيار الوسيلة التى نصل بها الى ما نصبو اليه . نوعية الوسيلة لا تقل فى تأثيرها أهمية عن الهدف نفسه .

وهكذا أساء الملك فهم الشعب وأساء الشعب فهم الملك .

وكما أســاء اخناتون فهم الشعب ، فقد أساء أيضـا فهم الخـالق .

ارتكب الملك خطأ فكريا فادحا عنـدما توهم أن الله يكافىء الصالحين من عباده فى هــذه الحياة ، ارتكب خطأ فادحا عندما هيىء له أن من يحب الله ويؤمن به لابد أن يحيا سعيدا باسما ، وأن من يكفر بالله هو الشقى . لم يدرك أن الله انما يمتحن الصالحين من عباده ، امتحانا بعد امتحان ، فهو رحيم جبار ، وهى ارادته التى لا نستطيع أن نفهمها ، وعلينا أن نتقبلها فى صبر ورضاء . لم يدرك اخناتون كل هذا فكانت وفاة احدى بناته فى سن التاسعة

صدمة له لم يستطع فهمها ، وكانت لهذه الصدمة اثرها على فكره وعلى فكر نفروتيتى ، فتغيرت بعدها حياتهما الزوجية ، وفقدت ما كان لها من هارمونية ووئام .

ابتغى الملك عند موت ابنته فهم ارادة الله ، وهذا ما لا يجوز للانسان أن يتوق اليه .

وكما أساء فهم الشعب ، فقد استهان أيضا بقوة اعدائه عندما غادر طيبة وتركها لهم يجمعون بها شملهم فى حرية ودون رقيب .

وكان اعداء الملك داخل طيبة فى ازدياد مستمر ، فهو قد انتقص من قدر مدينتهم عندما حولها من عاصمة للدولة الى واحدة مثل غيرها من مدن مصر . أضف الى هذا أن ذلك التحول قد خلق بدوره نوعا من البطالة بالمدينة ، اذ تناقصت الحاجة الى الخدمات نتيجة لرحيل الملك ورجال البلاط وكبار الموظفين وغيرهم . ثم ان الملك لم يغادر طيبة فحسب ، بل أغلق أيضا معابد آمون — رع ، ففقدت فئات كثيرة من عمال البناء والنحاتين والنقاشين وخدمة المعابد وغيرهم من صناع وباعة التمائم والدمى والفطائر مورد رزقهم واصبحوا عاطلين لا عمل لهم .

أهذه هى الثورة الاجتماعية التى جاء بها الملك من اجل الشعب واحلال العدل ؟.

مأســـاة . مأســـاة من تلك المآسى التى تمر بهـــا المذاهب السياسية التى تريد الخير للكادحين وتعمـــل جاهدة من أجلهم ، فاذا بها فى النهاية قد حققت نقيض ما سعت اليه ، واذا بالشعوب تبحث عن وسيلة للخلاص منها . جموع شعب طيبة التى ثار الملك من أجلها على كهنة آمون — رع ، هذه الجموع نفسها اخذت تنضم الى كهنـــة آمـــون — رع ، معبرة بذلك عن سخطها على الملك وما انتهجه من سياسة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فاخناتون ، الملك الشـــاب الذى مات قبل أن يبلغ الثلاثين ، قد خلط بين مسئوليتـــه تجاه الامبراطورية ، وبين مثله العليا كمبشر لدين جديد . لقـــد أراد أن تتوقف الحروب وأن تنتهى المجازر الوحشية بين الشـــعوب ، أراد أن يسود السلام ، واتخذ من مبدأ المساواة وسيلة لذلك . وكان هذا وهما . فشعوب الامبراطورية نفســـها كانت راضية سعيدة بارتباطها بمصر ، شعوب الامارات لم تتمرد على الملك ، لكن الامبراطورية المصرية لم تكن هى العـــالم كله ، وانما جزءا من العالم . وكانت هناك خارج الحدود قوى أخرى تعادى مصر وترفض أن يمتد نفوذها الى ما امتد اليه على يد تحتمس الثالث . وتناسى اخناتون وهو يتحدث عن الحب والعدل والمساواة ، تناسى وجود هؤلاء الأعداء ، وكان هذا خطأ ، وكانت لهذا الخطأ عواقبه فقد بداوا يعتدون على الحدود ، واخـــذ حكام الامارات يبعثون الى اخناتون بالرسائل ، يطلبون فيهـــا النجدة ، ويلحون عليـــه

فى الاسراع لصد تلك الهجمات — التى لم يكونوا قادرين على صدها وحدهم — لكن اخناتون الذى كان قد أغفل هذا الخطر ، اخناتون الذى أقسم الا يغادر ابدا عاصمته الجديدة ، اخناتون لا يرد على هذه الرسائل ولا يجيب النداء .

ويبدو أن الرجال الذين وقفوا الى جانب الملك فى بداية الاصلاح كانوا أكثر ذكاء ونزاهة من الذين استعان بهم فيما بعد ، فقد انضم الى الحركة بعد أن فرضت نفسها هذا النوع من الناس الذى لا يعرف مبدأ أو مثلا أعلى وانما يسير فى الركاب بحثا عما يعود به عليه ترديد الشعارات من منفعة ومال .

ويبدو أن الملك قد أصبح فى نهاية حياته القصيرة وحيدا لا يجد من يسدى اليه النصيحة المخلصة ، فيمتثل لها عن اقتناع وان لم ترقه فى البدء .

٩ — الآخـــرة

ومع ذلك ...

مع ذلك فان فشل ديانة اخناتون لا يرجع لسبب واحد من هذه الأسباب .

بل وليس مرده أيضا كل هذه الأسباب مجتمعة .

عقيدة التوحيد كما جاء بها اخناتون كان لابد لها أن تفشل

فهى مذهب يعبد الله لصفة واحدة من صفاته

مذهب يعبد الله الخالق

شـــكرا له على ما خلق

وهـــذا لا يكفى

فهناك صفات أخرى للاله الواحد الذى لا شريك له

وهناك من هذه الصفات ما يدور حول تصور معين

مرتبطة بفكرة جوهرية هامة

فكرة لا يمكن لديانة تريد أن تفرض نفسها

أن تستغنى عنها

وكانت هـــذه الفـــكرة فى مصر

منـــذ آلاف السنين

وكان الفلاح المصرى قد اهتدى اليها وحده

لكن اخناتون استهان بها وأعرض

مغالاة منه فى المثالية والتصوف

نعم كانت هناك فكرة فى مصر

وفى مصر وحـــدها

تكثفت فيها أفكار كثيرة
هى خلاصة دراسات عميقة
للنفس البشرية
الحائرة أمام أسرار الوجه،

وكانت هـــذه الفكرة
هى فكرة الآخـــرة

وهى ليست فكرة واحـــدة
وانما أفكار كثيرة رائعـــة
اجتمعت فى تخيل واحـــد
اجابة واحدة على مئات الأسئلة .
تفسير واحد لآلاف الألغـــاز

وأولهـــا الموت
فالانسان قد انفرد بعلمه اليقين بحتمية الموت
وهو لا يخشاه فقط عندما برى غيره يموت
وانما العلم بحتمية الموت هو رفيق الحياة
نتناساه أحيانا لكننا لا ننساه أبدا

نتقبل هذه الحتمية استسلاما لما لابد منه
لكننا نسأل : لماذا ؟

نعـم لـماذا ؟
لـماذا ولدنا ؟
لـماذا وجـدنا ؟
أنولد لنمـوت ؟
أنوجـد لنفنى ؟

حتمية الموت حقيقة فيها الكثير من القسوة على الانسان
وفيهـا ايضا جرح مستمر لكبرياء هـذا المخلوق
الذى يواجه كل تحـديات الطبيعـة
ويتغلب على اكثرها
لكنه أمام الموت عاجز

حتمية الموت هى حكم بالاعدام
يصدر ضد الانسان لحظة ميلاده
ولا يوجد من يعفو
وانما الله يرجىء التنفيذ
الى اجـل غـير معلوم
وهو وحده الذى يحـدد الميعـاد

لكن فكرة الآخرة تجد حلا بديعا لهــذه المشكلة

فكرة الآخرة تجيب على أسئلة الانسان

تسترضيه وتصالحه

هى رســـالة اليـــه

تخبره بأنه سيموت ليحيـــا

وهى حيـــاة خـــير من الأولى

أبدية فيهـــا خـــلود

فكرة الآخرة تهدىء من روع الانسان وتطمئنه

فالموت ليس نهاية وفنـــاء

وانما رجوع الى الله

الذى يستقبل الانسان بكلمات كلها حب ورحمة

يا أيتهـــا النفس المطمئنـــة

لا تخافى ولا تحزنى

وادخلى جنتى

النفس المطمئنة

نعـــم النفس المطمئنة فقط ..

فهنـــاك الجنـــة

وهنـــاك الجحيم

فكرة الثواب والعقـــاب

هى فكرة ثانية من الأفكار التى تنطوى عليها فكرة الآخرة

وهى بدورها فكرة لا تنجح ديانة ولا تنتشر بدونها

فكرة الآخرة لا تجعل الانسان يتقبل الموت فحسب

وانما هى تحـــذير وأى تحـــذير

وانذار وأى انذار

هدفهـــا ليس وصف الحيـــاة بعـــد الموت

وانما أن ينتشر الخير بين الناس قبـــل الموت

فى الحيـــاة الدنيـــا

التى كانت من قبل كل شىء

فحولتهـــا فكرة الآخرة الى امتحان قصير

نخلق لنمتحن

هناك رقيب يسجل

ومن يعمل خيرا خيرا يرى
ومن يعمل شرا شرا يرى

والخـــير الذى يامر به الله هو ان يحب الانسان الانسان . وألا يقسو أحدنا على الآخر . الله يأمر الانسان بالخير من أجل الانسان نفسه .

ولما كان الانسان لا يميل بطبيعته الى السـلام
وانما يجنح كثيرا الى العـدوان
ولما كانت له غرائزه وشـهواته
فقد اكتشف المصرى أن الأمر بالخير لا يجـدى
وأن النهى عن المنـكر لا ينفع

لابد من حافز ولابد من عقـاب
قد يبلغ الانسـان من سـمو النفس قـدرا يجعـله يرى فى الاضطرار مهـانة .
وقد يدفعه هـذا الاحساس الى استبدال الخوف من العقاب بالارادة الحـرة .
ارادة الخـير من اجـل الخـير نفسه وحبـا فيـه .
الانسان قادر على الوصول الى هـذه الدرجة من المثالية .

التى تتحول معها ارادة الخير الى طبع وعادة يصـــحبها ضمير . لكنه رغم ذلك دائما عرضة للاغراء .

..

لابد من ثواب وعقـــاب

وكما اتصلت فكرة الحيـــاة بعد الموت بفكرة الآخرة

فقد ارتبطت بها أيضا فكرة الثواب والعقـــاب

فهى مخاطرة واى مخاطرة عندما ينـــذر الدين الانســـان بالحساب هنا ، فى الحيـــاة الدنيا مثلما فعلت اليهودية فى بدايتها .

هى مخـــاطرة لأن الدين لن يســـتطيع الوفاء بما وعـــد ،

وها هم اليهود قد عادوا الى فلســـطين وأقاموا دولتهم قبـــل مجىء المسيح المنتظر .

وهذا نفى لصحة ما جاء فى كتبهم

وها نحن نرى أقلية يهودية متدينة

تعيش داخل اسرائيل

لكنها ترفض الاعتراف بوجود هـــذه الدولة

لان وجودها يتعارض مع ما جاء فى النصوص

المصرى اكتشف قبل غـــيره

أن فكرة الثواب والعقـــاب

تؤتى ثمارها

اذا ربط بينها وبين فكرة الآخــرة

فهو قد تأكد خــلال السنين

وجيلا بعــد جيــل

من أن هذه الحيــاة ليست مكان الحساب

الله لا يكافىء المحسنين

ولا يعاقب المفسدين

فى هــذه الحيــاة

بل بالشر يصلون الى الثروة

وبالثروة يصبحون شرفاء

وفى ظلها وخلف ستارها يأتون بالمنــكر

وهم من ذلك كله فى ســعادة وصفاء

والويل لمن عزم على احلال العــدل مكان الظلم

فهو فريسة للظــلم نفسه

لا ! لا يوجد ثواب او عقاب فى الحيــاة الدنيــا

ان كان هنــاك ثواب وعقــاب

ففى الآخــرة

بعـــد البعث

الثواب والعقـاب بعـد البعث

والبعث هو فكرة أخرى من تلك الأفكار التى اجتمعت فى فكرة الآخـــرة

البعث ليس حيـاة بعـد المـوت

وانما هو حيـاة أخـرى

فيهـا تعويض للانسان عما منى وبلى به فى الحياة الدنيا

فالحيـاة الدنيـا

التى تنتهى بالمـوت

حيـاة شقية أكثر منهـا سعيدة

حيـاة فوق كوكب ذى طبيعة معادية

أجدادنا كانوا فى خوف دائم من الظـلام

وما تجول فى الظلام من حيوانات مفترسة واشـباح

كانوا فى خوف من الرعد والبرق

من الريح والثلوج والسـيول

وما زلنا نحن فى خوف من الأعاصير والبراكين والزلازل

وكلها تحطم فى ثوان قليلة ما شيدناه خلال قرون طويلة

الخوف شـعور مستمر يصاحبنـا

ولا يفارقنا طيـلة حياتنـا

الخوف من الفشل
من الحاجة
مما قد يأتى به الغد
من الشيخوخة والمرض
من الموت
والخوف أيضا من شر غيرنا من البشر
وهو شر وأى شر

الخوف وعدم الرضاء
فكلما وصلنا الى شىء كنا نبتغيه
ابتغينا شيئا آخر
سعادتنا ليست فيما نملك
وانما سراب نسعى اليه
ولا نصل

الحياة الدنيا آلام
أكثرها مصدره الانسان نفسه
لذا نظن أنها آلام لا داعى لها
نظن أننا لو اردنا لاستطعنا تفاديها
لكننا واهمون

فالانسان وهو يؤذى الانسان
لا يدرك ما يفعل
الانسان لا يحس بالاساءة الا اذا لحقت به
كل برىء أمام نفسه
وكل أمام الآخرين مسئول عن ذنوب لا يدرى انه ارتكبها

وهكذا تمضى بنا الحياة
لا نرى فى يومنا غايتنا
وانما هو يوم مثل غيره
فى انتظار السعادة والهناء
ونجرى ونعدو
ونصل فى نهاية المطاف
الى الشيخوخة والمرض
ثم الى الموت .

اهذه هى الحياة ؟
امن اجل هذه الحياة خلقنا ؟
اوجدنا كى نتألم ونتعذب ؟

فكرة الآخرة تصالح الانسان مع حتمية الموت
وتصالحه أيضا مع آلام الحياة

فكرة الآخرة تجيب على لغز الموت
وتفرض علينا سلوكا أخلاقيا يسمح بقيام المجتمع وبقائه
ثم هى بعد كل هذا تواسينا عما نلقاه فى هذه الحياة

ومن هنا نتبين عبقرية الشعب المصرى الذى اهتدى الى هذه الفكرة ... وحده .

لم يهتد اليها تحت قيادة الملوك والكهنة ، وانما بلورها وصاغها ، ثم فرضها بعد ذلك على الملوك والكهنة ، وبعث بها الى غيره من الشعوب ، فآمن بها الرومان والاغريق وشعوب آسيا الصغرى .

وكما أدى اغفال فكرة الآخرة الى فشل حتمى لديانة أخناتون ، أول ديانة للتوحيد ، فقد كان للاهتمام البالغ بهذه الفكرة فى الاسلام ، آخر ديانة للتوحيد ، دور خطير فى الانتشار السريع لهذه الديانة . فالاسلام هو الديانة السماوية الوحيدة التى انتشرت وفرضت نفسها بصورة نهائية أثناء حياة رسولها . أما النبى موسى فقد مات قبل أن تنتشر ديانته ، وهناك من يعتقدون أن اليهود ضاقوا بموسى فقتلوه ثم ارتدوا عن ديانته ولم يعودوا الى الايمان بها الا بعد مضى حقبة طويلة من الزمن . واما السيد المسيح فلم تنته حياته على أى حال بصورة طبيعية ، ولم يبدأ انتشار المسيحية الا بعد أن فارق الأرض بخمسين عاما على الأقل .

الاســـلام هو الديانة السماوية التى انتشرت سريعـــا ، وهو فى نفس الوقت الديانة التى تحتل فيهـــا فكرة الآخرة مكانة لم نعرفها من قبل فى اليهودية أو المسيحية . فما يوجهه الله لبنى اسرائيل فى كتب العهد القديم من وعد ووعيد يدور كله حول الأرض الموعودة . وباستثناء اشارات بسيطة نجدها فى كتب من جاءوا بعـــد موسى من أنبياء (دانيـــل ٤ ـــ ٩ ت) فالحساب هو ثواب وعقاب فى الحيـــاة الدنيا لا فى الحيـــاة الآخرة . أما فى المسيحية فقد اتضحت الفكرة ، واتخذت ـــ وخاصة فى الرسالة التى بعث به القديس بولس من مديـــنة افسوس (جنوب ازمير) الى ســـكان كورينت (غرب أثينا) ـــ شكلا فلسفيا عميقـــا . لكنها مع ذلك لم تحتل فى العهد الجديد هذه المكانة التى احتلتها فى القرآن الكريم ، فكتاب الله ملىء بالوعد والوعيد ، والآخرة بما فيهـــا من بعث ومن ثواب وعقاب ومن جنة ونار أمر جوهرى فى الدين الاسلامى ، وهو دائما محور تفكير المســـلم .

ومن الغريب حقـــا أننا لا نجـــد فى أى بلد عربى أثرا لقصر من قصور الملوك والأمراء ، فالقصر العربى الوحيد الذى بقى قائما حتى يومنا هو قصر الحمراء بمدينة جرانادا بأسبانيا . وقد يكون السر فى هذا أن ملوكا كثيرة كانت لايمانها بأن الحياة الدنيا فانية تعيش حياة بسيطة متواضعة ، وقد يكون السر أيضا أن المسلمين كانوا ينكرون على حكامهم أى لون من البـــذخ ، فيمحون آثارهم بعـــد موتهم .

والحياة الآخرة كما صورها الاسلام هى حياة للمادة وليست حياة للروح وحدها . فالانسان بعد البعث سيأكل ويشرب ويتمتع بلذات حرمت عليه أو حرم منها فى الحياة الدنيا . وهذا التصور قريب جدا من تصور المصريين للحياة الآخرة .

لكن كيف اهتدى المصرى الى فكرة الآخرة ؟.

الفــلاح لم يكن ينظر الى أعلى

لم يكن يرفع بصره الى السماء

او يقلب وجهــه فى النجوم والكواكب

ولم يكن ينظر الى الشمس

كان ســعيدا بهــا

وكان يعــلم أنه يدين لهــا بالكثير

لكنه رأى فى دورتها وحركتها

نظاما متناهيــا فى الدقة

قواعد لا تعرف الشــذوذ

المصرى لم يقرأ ولم يسمع من أبيه أو جده

أن الشمس امتنعت يوما عن الشروق

لم ير فى سلوكها ما يدعو للقلق

فاعتبر وجودها أمرا بديهيا

ونظر الى الأرض

الى الأرض والى النيـــل

فله هو الآخـــر نظامه

والميـــاه تأتى عاما بعـــد عام

وفى ميعادها

لكنها قاعدة تعرف الشـــذوذ

فقد تعلم المصرى من جـــده ان الفيضان قد يأتى احيـــانا بصـــورة غـــير كافيـــة

واحيـــانا اخرى بصـــورة قوية جارفة فيحطم الســـدود ويغـــرق الأرض

وأحيـــانا لا يصـــل

لكن مياه الفيضان ان لم تجىء

فماذا يحدث مع الأرض الجافة المتشققة

التى تنتظر المياه كى تعود اليهـــا الحيـــاة ؟.

وكيف ينمو النبات ؟.

الماء والأرض والنبات

هذه أمور ملموسة

متصلة بحياة المصرى منذ البداية

بل هى حياته نفسها

وهو معها فى حوار دائما

جعل لكل منها الها

ثم جعل من هذه الآلهة ثالوثا واحدا

أخذت غيره من الآلهة تختفى تدريجيا وتفسح له الطريق

وحدة الأرض والماء والنبات

أرشدت الفلاح المصرى الى فكرة التوحيد

فنهج اليها سبيلا غير سبيل الملوك

سارت به نحو التوحيد

وهدته الى فكرة الآخرة

فقد رأى الأرض سوداء بعد أن روتها مياه النهر

ثم رآها خضراء تتدفق من باطنها حياة جديدة رائعة

ثم رآها بعد ذلك تجف وتتشقق عطشا

فى انتظار فيضان جديد

الأرض تحيـا لتمـوت
وتمـوت لتحيـا مرة ثانيـة
وما فوقهـا من نبـات
يحيـا ليمـوت
لكن بذوره بداية لحيـاة جـديدة
النبـات لا يفنى
النبـات رمز للحيـاة بعـد المـوت

والنهر الذى تنخفض مياهه
ويبدو عليهـا الركود
الشـيخوخة والمـوت
ثم اذا بالحيـاة تدب فى شرايينه مرة أخرى
وهى حركة واندفاع
أمـواج وفيضـان
فتـوة وشـباب

اليس النيـل هو الآخر دليلا على أن الوجود حلقة متصلة
من حيـاة وموت وموت وحيـاة
دليلا على أن الموت ليس النهـاية والفنـاء
وانما اسـتعداد وبداية لحيـاة جـديدة

فاذا كانت هـذه هى روح الأرض والنهر والنبـات
أفليس من البداهة ان تكون هى أيضـا روح الانسـان .
الذى هو من هـذا النبـات
من هـذه الأرض وهـذه الميـاه ؟

واحب المصرى أوزيريس دون غيره من آلهة ... أوزيريس اله الأرض والنهر والقمح ، اله العـدل والخصـوبة . ويبـدو أن أوزيريس كان انسانا قبل أن يتحول الى اله ، ويبدو أنه كان ملكا عادلا حكم مصر فى الفترة التى بدأ المصرى يتحول فيها من صائد الى فلاح . فالنصوص تذكر أن أوزيريس علم النـاس زراعـة القمح ، وأن يميزوا بين ما ينفع وما لا ينفع من نبات ، وأنه علمهم أيضا اقامة السدود وشق القنوات وتنظيم الرى .

المصرى اختـار اذن من بين مئات الآلهـة الهـا له أولا وقبل كل شىء صفة العدل ، وله ثانيا ارتباط وثيق بالأرض والماء والقمح . ثم أخذ المصرى ينسج أسطورة رائعة حول بداية هذا الاله وطبيعته . فقـد كان للملك أوزير أخ شرير يحقد عليـه هو ست ، ولم يكن أوزير يدرى بهذا الحقد ، فلما عاد من رحلة قام بها ليعلم شعوبا أخرى ما لقنه لشعب مصر ، احتـال عليه ست وادخله فى تابوت حجرى أحكم اغلاقه ثم قذف به الى النيل .

ويرى المصرى فى مصير هذا الملك رمزا لواقع الحياة الدنيا . فالظالم اقوى من العادل والعادل دائما فريسة للظلم .

لكن واقع الحياة علم المصرى ، ذلك الانسان الوديع الباسم المتفائل ، واقع الحياة علمه أيضا أنه بالحب والوفاء ، وبالثبات والمثابرة ، يستطيع أن ينتصر على الظلم .

وها هى ايزيس ، أخت أوزير وزوجتـــه ، هائمـــة تبحث عن جثة زوجها ، لا تدخر جهدا ولا تترك وسيلة الا ولجأت اليها . وتجد الزوجة الوفية التابوت فى باطن الأرض وقد نمت فوقه شجرة غاية فى الخضرة والجمال ، وتعثر أيضا على كافة أجزاء الجثـــة وتلجأ الى السحر فتتمكن من ربط هذه الأجزاء بعضها ببعض حتى تكتمل الجثة ، ثم تلجأ للسحر مرة أخرى فتتحول الى طائر يحلق فوق جثمان زوجها فى شوق وحب ، فاذا بالجثمان يتمكن من اخصاب ايزيس بعد أن فارقته الحياة ... فتحمل بحور .

وفى هذا كله رموز تؤكد للمصرى صحة تصوره عن الوجود . فأوزير قد أخصب الأرض بعـــد موته فنمت الشـــجرة الخضراء الرائعة ، وأخصب ايزيس فحملت بحور .

أوزيريس مثـــل بذور النبـــات .

بعـــد أن يمـــوت النبـــات .

هنـــاك حيـــاة بعـــد المـــوت .

هناك حياة بعـــد الموت ، لأن حور يصبح شابا قويا يريد الانتقام لأبيه ، وايزيس هى الأخرى تبحث عن حيلة تستطيع بهـــا ارغام رع ، وهو كبير الآلهة ، على اعادة الحيـــاة لزوجهـــا . وينجح الابن وتنجح الأم ، التى تلجأ فى كل هـــذا الى السحر ، وتعود الحياة الى أوزيريس ، لكن محكمة الآلهة العليا تنصبه ملكا على الدنيا السفلى ، ملكا لعالم الموت ، حيث تغرب الشمس .

لكن المصرى لا يرى فى أسطورته رمزا للحياة بعـــد الموت فحسب .

المصرى يرى فى هذا الثالوث، ثالوث الأب والأم والابن مثلا أعلى يحذو حذوه فى حياته العائلية . المصرى قد أدرك ، وهـــذا ما لم يصـــل اليه علماء النفس فى أوروبا وأمريكا الا فى القـــرن العشرين ، المصرى أدرك أن الحياة العائلية التى يسودها الحب والوفاء واستعداد كل فرد للتضحية من أجل الآخرين ... أدرك أن هـــذه الحياة هى ينبوع الفضيلة . الحب بين أفراد العـــائلة الواحدة هو الأساس الذى يقوم عليـــه الحب بين أفراد المجتمع الواحد . فمن لم يشعر بالحب والحنان من والديه وأخوته يصبح عاجزا مدى الحيـــاة عن حب الآخرين ، يشـــعر بالنقمة ويجنح الى الكراهية .

أحب المصرى هـــذا الثالوث الالهى .

فأوزيريس هو العدل والتفانى فى خدمة الجميع .

وهو أيضا الأرض والنيـــل والقمح
وايزيس هى رمز للوفاء والاخـــلاص
وحـــور رمز للبر بالأبوين

تعود الحيـــاة الى أوزيريس
ويصبح ملكا لعـــالم الموتى
ومن هنـــا تبـــدأ فكرة الآخـــرة

أسطورة أوزيريس غاية فى الروعة
فالمصرى وان كان قد تأكد من أن العـــدل فى هـــذه الحياة مستحيل
فهو مع ذلك يريده ويبحث عنـــه
وكما فشل أوزيريس فى البقاء على العرش فى الحياة الدنيا ..
وأصبح ملكا أبديا فى دنيـــا الخلود ..
كذلك العـــدل
المصرى يصنع للعـــدل عالما جـــديدا خاصا به
هـــو الآخـــرة
فى الآخـــرة وحدها ســـيكون العـــدل
وان كانت للخالق ارادة لا نفهمها فى هـــذه الحيـــاة
فارادته فى الآخـــرة ســـتكون واضحة

بل لابد أن تكون واضـــحة
فهنــاك حســـاب ومـــيزان
يحدد فيه مثقال شعرة واحدة المصير الأبدى للانسان
لن يقول الخالق للانسان فى الآخرة « هذه ارادتى فتقبلها »
وانما هى محاكمة ولابد أن تكون للحكم حيثيات

وهكذا كانت حكمة المصرى وهكذا كانت عبقريته
فبانتقال أوزيريس العادل من الحياة الدنيا الى دنيا الأموات
انتقل العدل هو الآخر من هذه الحياة الى عالم ما بعد الحياة
الى الآخـــرة .

وهـــكذا ارتبط ثالوث الحب والتضـــحية بفـــكرة الحيـــاة بعـــد المـــوت

وارتبطت فكرة الحياة بعد الموت بفكرة الثواب والعقاب . والعـــــدل

وكانت الناس قد رأت ايزيس تســـتخدم الســـحر لتحقق أغراضها النبيلة ، فهيىء اليهم فى المراحل الأولى لديانة أوزيريس أن اللجوء للســـحر ضرورى للتحايل على الآلهـــة فى عالم الموتى عندما توضع القلوب فى الميزان ، وانتشرت صـــكوك الغفران ، وأقبلوا على شرائهـــا .

لكن تفكير الانسان المصرى اخــذ فى النضوج ، فبدأ يمقت السحر ، واقتنع بأنه لا سبيل الى دخول الجنة الا باتباع الحق ، الا بالحب والعــدل .

بدأ المصرى يعرف معنى الفضــائل ويعــددها
يحــدد مفهوم الرذيلة ويصف عواقبهــا
أخــذ يشرع القوانين الأخلاقيــة
ويرجعهــا الى ارادة الاله
ارادة العــدل والحب والصــدق

وقام مجتمع فريد من نوعه
مجتمع وضع الأسس الفــكرية والأخلاقيــة
لكل ما ظهر بعــده من عقــائد وديانات

١٠ — موســـى

وانها حقــا لاهانة لمصر عندما لا يذكر العــالم عند حديثه عن حضارتنا غير هذه الأهرام والمعابد والقبور . ولا أقول ذلك لأقلل من شأن هذه المعجزات الحضارية وما قامت عليه من خلفية علميــة خطيرة فى ميــدان الهندسة والعمارة وعلوم الطبيعــة والرياضيات . لقد كان البناء دائما جزءا من حضارتنا . كنا نحب دائما أن نعطى لكل فكرة مجردة هيكلها المادى .

لكن هذه الأهرام والمعابد رغم اعجازها لا تعدو ان تكون قشورا سطحية للحضارة المصرية . أما جذور هـذه الحضـارة فهى القوانين الأخلاقية ، هى هـذا الفكر العميق ، هى الضمير الانسانى الذى بفضلنا نحن نشأ وتطور . جذور حضارتنا أفكار جوهرية خطيرة فيها اجابة على أسئلة الوجود .

وجدنا ردا بديعا رائعا على مأساة حتمية الموت .

وجدنا تفسيرا لاستحالة العدل المطلق فى الحيـاة الدنيا .

لكننا رغم ايماننا بهذه الاستحالة لم نيأس ولم نكف عن الأمل .

حاولنا دائما احـلال العـدل محل الظلم ... ولن نتوقف عن هـذه المحاولة .

وجدنا فكرة الثواب والعقـاب ، التى يتوهم علماء النفس من أنصار مدرسة السلوك الأمريكية عندما يتحدثون عنها اليوم فى القرن العشرين ، أنهم أحرزوا اكتشافا علميا جديدا ، فلا يسعنى عند قراءة كل هذا غير أن أبتسم ساخرا .

ووجدنا فكرة البعث بما فيها من تعويض للانسان عما أصابه فى الحيـاة الدنيـا .

ونشأت لكل هـذا الأخلاق ، وظهر الضـمير .

وان كان اخناتون قد أخطأ عنـدما رفض ديانة أوزيريس وأهمل فكرة الآخرة ، فهـذا على ما يبدو لأنه رفض السـحر ، ولأن ديانة أوزيريس لم تكن بعد قد تخلصت من بقايا السحر .

ان كان اخناتون قد فشـــل ، فيكفيه فخرا أن عالما عبقريا مثل سيجموند فرويد ، وهو يهودى الديانة ، يقول فى كتاب أفرده لهـــذا الموضوع أن النبى موسى عليـــه الســـلام لم يكن يهوديا وانما مصريا من أنصـــار أخناتون ، صمم بعد موت الملك على انقاذ فكرة التوحيد ، بعد أن رأى كهنة آمون يحطمون العاصمة الجديدة ويمحون كل أثر لاخناتون .

يقول فرويد اليهـــودى فى كتاب عنوانه « موسى المصرى » ، أن موسى عنـــدما رأى شعب مصر يدير ظهره للديانة الجـــديدة بعد موت الملك ، رفض الاستسلام ، وبدلا من أن يتخلى عن فكرته تخلى عن شعبه وبحث للفكرة عن شعب آخر .

وكان العبرانيون هم الشعب الجـــديد الذى اختاره موسى لانقاذ فكرة التوحيد .

ويستشهد فرويد على صحة زعمه بالتـــالى :

أولا — موسى اسم مصرى وليس اسما يهوديا .

ثانيا — ليست مصادفة أن يأتى موسى بديانته فى فترة لاحقة لعهد اخناتون ، وليست مصادفة أن تكون بين موت الملك وظهور موسى فترة زمنية قصيرة .

ثالثا — ليست مصادفة أن يكون موسى قد نشأ وتربى وعاش فى مصر .

رابعا — ليست مصادفة أن يكون موسى ، وهو النبى الذى يعتمد فى التبشير والاقناع على وضوح الكلمة ، ليست مصادفة أن يكون موسى فى حاجة الى هارون كى يفقه اليهود قوله . العقدة التى كانت بلسانه هى عدم قدرته على الحديث بلغتهم . موسى كان فى حاجة الى مترجم .

خامسا — موسى تبنى عادات مصرية بحتة لا تفسير لها حتى الآن ولم يكن يعرفها أى شعب آخر غير المصريين . من هذه العادات عادة الختان . ختان الذكور عادة مصرية قديمة ، لذلك يتمسك بها أقباط مصر حتى اليوم دون غيرهم من المسيحيين فى كافة أرجاء العالم . وليس من المنطقى أن يكون موسى نبيا وزعيما يهوديا ، ثم يتبنى عادة من أهم عادات أعدائه ويفرضها على شعبه . ثم ان كل ما قيل حتى الآن من أن الختان ضرورى لأسباب صحية هو من قبيل الافتراضات التى لم تثبت صحتها . والمصريون القدماء هم وحدهم الذين كانوا على علم بمعنى الختان ، لكننا لم نعثر حتى الآن على أى نص يفسر اهتمامهم بهذه العادة .

سادسا — المصريون هم الشعب الوحيد فى العالم الذى لم يكن يأكل لحم الخنزير . وموسى تمسك بهذا أيضا . ومن الغريب حقا أنه لم يتمسك بالختان وتحريم لحم الخنزير فحسب وانما جعلهما ميزة تميز من يؤمن بديانته عن غيره ممن لا يؤمن بها .

ويزعم سيجموند فرويد أكبر عالم للنفس فى العصر الحديث — وهو وحده المسئول عما يزعم — أن موسى كان مصريا ،

وأن هدفه كان العودة بالعبرانيين الى مصر ليفرض على شعبه ديانة التوحيد التى تنكر لها بعد موت الملك . ولما كان المصريون يشعرون باحتقـــار بالغ لغيرهم ممن لا يعرفون عادة الختـــان ، فقد حرص موسى على أن يكون شعبه الجديد بعـــد عودته بفكرة التوحيد وانتصاره فى مرتبة تسمح للمصريين بقبوله واحترامهم .

وليس هناك فى الواقع أى تناقض بين كل هذا وبين ما ورد فى القرآن الكريم ، اللهم الا ما زعمه فرويد من أن موسى كان مصرى الأصـــل . ومن البديهى أن يؤكد العهـــد القـــديم انتماء موسى الى العبرانيين ، فهو أمر غير مقبول أن يكون نبى اليهودية وأعظم رجل عرفه تاريخ اليهود من أصل مصرى .

لا يوجد تناقض والأمر فى الواقع لا يختلف ، فالكتب السماوية تؤكد أن المصريين قد عثروا على موسى رضيعا . أى أنه نشـــأ مصريا ، عاش بين المصريين وتعـــلم فكرهم ودرس حضارتهم . والسؤال الذى يهمنا هو :

ما الذى يحـــدد انتماء الانسان الى شعب من الشعوب ؟ أهى الوراثة ، أم النشأة والتربية واللغة والبيئة ؟.

ثم اننا نعلم أن ما يفترضه سيجموند فرويد من أن موسى أدار ظهره لمصر كى يعود اليها مرة أخرى على رأس شعب آخر مؤمن بالتوحيد ، نعلم أن هذا الافتراض كان فى صدر الاســـلام

حقيقة . فقد رفضت مكة الايمان بالله ورسوله ، وحاول الرسول عليه السلام ثلاثة عشر عاما دون جدوى ، فغادر مكة واتجه الى شعب المدينة ، الى الأنصار ، الذين آمنوا برسالته ، فعاد الى مكة فاتحا منتصرا .

وانى أود فى الختام أن أضيف الى ما أورده سيجموند فرويد من أدلة على انتماء موسى عليه السلام لشعب مصر وحضارته دليلا آخر غاب عنه .

موسى لم يبشر بديانة التوحيد فحسب ، وانما أغفل أيضا فكرة الآخرة . تماما كما فعل اخناتون .

لقد ذكرت من قبل أن ديانة أوزيريس كانت قد انتشرت فى آسيا الصغرى وبين الاغريق واليونان ، وأضيف أن هذا الانتشار بلغ درجة جعلت الرومان يقيمون معبدا لايزيس وسط مدينة روما ، وذلك فى القرن الثالث بعد ميلاد المسيح .

١١ — فى قديم الزمان

فى احدى الأمسيات لاحظت نفروتيتى على اخناتون شيئا من الملل .

قالت : انى لا أحب أن أراك هكذا . أندمت على انتقالنا من طيبة الى هنا ؟.

قال : لم أندم لحظة واحدة . لكن أتظنين أننا نجحنا ؟.

قالت : انتشار الأفكار من أصعب الأمور . هناك أفكار تنتشر بين يوم وليلة ، كى تختفى مرة أخرى وبنفس السرعة . وهناك أفكار تحتاج الى أجيال ، بل الى قرون حتى تنتشر ، لكنها عندما تفرض نفسها ، باقية لا تندثر .

قال : أتظنين فكرة التوحيد من هذه الأفكار ؟.

قالت : بل انى على يقين من هذا لأنها الحقيقة .

قال : لقد مضى زمن طويل دون أن تروى لى قصة من قصصك المسلية التى أحب الاستماع اليها .

قالت : لقد مضى زمن طويل دون أن تطلب منى ذلك .

قال : لا مانع عندك اذن هذا المساء .

قالت : البتة ، بل انى أحب أن أروى وأراك جانبى تنصت .

قال : ما رأيك أن ندعو أمى والبنات ، ربما ماريتاتون وماكيتاتون ؟.

قالت : ليكن ما تريد . دعنى اذن وحدى كى أبحث فى ذاكرتى عن قصة شيقة ولنلتق بعـــد قليل .

وكانت أمسية من أمسيات الشـــتاء فجلست الأسرة الملكية أمام المـــدفأة حول نفروتيتى التى كانت تكرر : انى أحب النظـــر الى وهج الأخشاب وهى تحترق . ما أجمل النار ! بدونها ما تحول الانسان الى انسان ولما نشأت الحضارة .

قالت تى ــ يا ، الملكة الأم : أنت على حق . فالنـــار أهم اكتشاف قام به الانســـان . لكننا نريد الآن الاســـتماع الى قصة شيقة ، أليس كذلك !.

عادت نفروتيتى لتقول : ان لصوت الأخشاب وهى تحترق نغما جميـــلا .

فقال اخناتون : لكن صوتك أجمل . هيا ابدئى !.

قالت : ماذا تريدون ، قصـــة من قصص ميتـــانى أم قصة من قصص كاتى أم قصة مصرية ؟.

قالت ماريتاتون : نرضى بأى قصة ترويها لنا . هيا ابدئى يا أماه !.

وكررت ماكيتاتون : ابدئى يا أماه !.

قالت نفروتيتى : حســـنا ! ما دامت هـــذه رغبة الجميع . انصتوا اذن :

في قـديم الزمان ..

عندما اذن الخالق عز وجل للحيـوان

أن ينطق بلغـة الانسـان

عندما كان الحمار شـهيرا بالثقافة

والخنزير مثـلا فى النظافة

العجـل طبيـا

والبغـل أديبـا

أيام كان القنفـد قهوجى

والتمسـاح أسـطجى

الذئب عتـال

والدب بقـال

الثعبـان فخورا بمهنته

والقرد يزهو ببعلتـه

نعـم فى قـديم الزمان

النمر طحـــان
والنسر عجـــان

الفيـــل عطـــار
والعصـــفور جـــزار

عندما كانت الغزالة تعشق الأســـد
والديك مغرما بالثعلب
والقطـــة صديقة للفئران

أيام كان الجمل يتاجر فى بيع الخيول
والجبـــال تنحنى أمام الســـهول
والمطر لا يسقط الا عند صـــفاء السماء

فى هذا الزمان القديم ، الذى لم يكن مع ذلك أقدم الأزمنة ، فهو لم يكن فى بداية الخلق ، وانما جاء بعد أن كان المولى عز وجل قد غير رأيه فى مسيرة الخلق .

فسمح للشيطان بأن يغرى الانســـان
وخلق الدموع
وظهر الكذب بعد أن كان الانسان بريئا لا يعرف غير الحقيقة .
وبدأت الكراهية بعد أن كان الانسان لا يعرف غير الحب .

فى هذه الأيام التى لم تكن سعيدة مثل ما كان قبلها من أيام .
لكنها لم تكن قد بلغت من التعاسة ما بلغناه .
فلم يكن المولى قد خلق الذبابة أو البعوضة أو الصرصار .
ولم تكن الدنيا تعرف ضجة أو قذارة أو زحاما .

فى هذا الزمان ، مولاى ، دارت حوادث هذه القصة .
فهل تأذن لى بأن أرويها ؟.

كانت الأطفال تجاهد طوال الوقت كى تكتم ضحكها ، حتى الملك نفسه بدأ يبتسم ابتسامة أضاءت وجهه ، فلما فرغت نفروتيتى من هذه المقدمة استغرقوا جميعا فى الضحك

وكررت ماريتاتون كلمات أمها :

الحمار شهيرا بالثقافة
والخنزير مثلا فى النظافة
الثعبان فخورا بمهنته
والقرد يزهو ببعلته

وقالت ماكيتاتون :

العجل طبيبا
والبغل أديبا

حتى الملكة الأم تى ــ يا أعادت ضاحكة :

لم يكن المولى عز وجــل قد خلق الذبابة أو البعوضة
أو الصرصار .

ولم تكن الدنيا تعرف ضجة أو قذارة أو زحاما .

أما نفروتيتى فانتظرت حتى فرغوا من ضـــحكهم ، فقامت من مكانها وانحنت أمام الملك قائلة :

ــ مولاى ! أتأذن لى الآن بأن أبدأ قصتى ؟.

قال اخناتون : بل أتوسل اليــك أن تكررى هــذه المقدمة مرة ثانية قبل أن تبدئى رواية القصة .

وقالت تى ــ يا : انك لست راوية وشـــاعرة فحسب ، بل أنت أيضا ممثلة ماهرة . أرأيتم كيف وقفت وانحنت أمام أبيكم وبأى نغمة وجهت سؤالهـــا ، وكأنها جارية مطيعـــة تريد تسلية سيدها ، وليست نفروتيتى التى يعشقها هو الى حد العبادة .

كررت نفروتيتى المقدمة وعاد الجميع للضحك ، لكنها هذه المرة استمرت فى الحديث قائلة :

فى هذا الزمان ، مولاى ، كان هناك ملك قد اشتهر بالعدل وحسن تدبير الأمور بين الرعية ، فأحبه شعبه واصبح قدوة لغيره

من الملوك . ذلك أنه كان يحب السلم والسـلام ويمقت القتـل والقتال ، فساد الأمن فى بلاده والوئام بينه وبين جيرانه ، واستتبت الأمور فى الداخل والخارج ، لكن الملك لم يكن سعيدا ، بل كان حزينا لا يعلم بهمه غير كبير وزرائه . أما الشعب فلم يكن يرى غير وجهه البـاسم .

لكن ما سر حزن هذا الملك يا ترى وقد توفر له كل ما يبتغيه الانسـان ؟.

كان لهـذا الملك ابن وحيـد فى الثامنـة عشرة من عمره ، هو ولى العهد . وكان شابا كثير الذكاء ، قوى البنية ، جميـل الوجه . فأرسلت ملوك كثيرة رسائل عديدة الى أبيه ، كل منهم يعرض عليه أجمل بناته زوجة لابنه .

لكن يا أسفاه ! لم يكن بوسع الملك أن يقبل عرضا واحـدا من هذه العروض فابنه الأمير كان يعشق فتاة لم يرها ولم يسمع صوتها ، فتاة لا يعرف اسمها أو أين تقيم ولم يحدثه عنها مخلوق .

قالت ماريتاتون : أراك تمزحين يا أماه ! كيف هذا ؟.

وقالت ماكيتاتون : كيف يعشق رجل امرأة لم يرها ولا يعرف من هى ؟.

قال اخناتون : هذه ألغـاز نفروتيتى .

عادت نفروتيتى للحديث فقالت : لم يكن هذا الأمير من الذين يحبون فى المرأة جمال عيونها أو اعتدال أنفهـــا أو رقة عنقهـــا ، بل ولم يكن يهمه كثيرا ان كانت جميلة القوام رقيقة الخصر أم ممتلئة الجسم ثقيلة الوزن . وسواء كانت المرأة طويلة القامة أم قصيرة فالأمر عنده سيان .. والأمر عنده سيان سواء كانت ذات صوت عميق يشبه صوت الرجال أم ذات صوت رفيع يشبه صوت الأطفال أم كان صوتها بين بين ، لم يكن يكترث بكل هـــذا ، حتى الذكاء والطباع وان كان يوليها أهمية كبرى ، فهى لم تكن أول ما يبحثه عنـــه .

قالت ماريتاتون : لغز جـــديد .

وقالت ماكيتاتون : وما زلنا فى انتظار حل اللغز الأول .

قالت نفروتيتى : لقد كان أكثر ما يجذب الأمير فى المرأة جمال قدميها وجمال يديها .

هنا صاحت تى ـــ يا : هذه ليست قصة مصرية يا ماكرة ، فنحن المصريين لا نمتاز بجمال الأيدى والأقدام وان كانت لنا أجمل العيون وأكثف الرموش .

قالت نفروتيتى : كان الأمـــير لا يهتم اذن الا بجمال الأيدى والأقدام ، فقام يوما برحلة صيد فى الجبال ، وشعر بعطش شديد ،

فتوجه الى بئر كان يعرف مكانه ، وعندما جذب الحبل الى أعلى وجد فى الدلو حذاء ذهبيا غاية فى الجمال . أطفأ المسكين نار العطش فاشتعلت داخله نار جديدة . يا له من حذاء جميل . انه من ذهب ، لكن ماذا يعنيه الذهب ؟ عند أبيه الكثير من هذا المعدن . ما أثار اهتمامه لم يكن الذهب وانما حجم الحذاء وشكله . لقد تأكد الأمير بعد أن تأمل الحذاء طويلا أن لصاحبته قدمين غاية فى الرقة والجمال .

عاد الأمير الى القصر فأخذ ينظر الى الحذاء ليلا ونهارا ، بل وأغلق باب حجرته واعتزل الناس أياما ، حتى دعاه الملك للحضور .

قال الملك : ماذا حدث يا بنى ؟ لم أرك منذ أيام كثيرة !.

رد الأمير : انى لا أستطيع أن أخبرك بالأمر يا أبتاه .

قال الملك : منذ متى تخفى عنى أمورك وتجعل بينى وبينك أسرارا ؟.

رد الأمير : أخاف أن تسخر منى يا أبتاه .

قال الملك : متى سخرت منك يا بنى ؟ ألم أبد دائما اعجابى بذكائك ؟.

رد الأمير : لكن السر فى اعتزالى للناس هذه الأيام هو حقا أمر يدعو للسخرية .

قال الملك : اخبرنى بكل شىء .

رد الأمير : أنت تعـــلم يا أبتاه أنى أهتم كثيرا بجمال الأيدى والأقـــدام .

قال الملك : أنت حر فى ذلك ، ولكل انسان ذوقه الخاص . ولا أخفى عليك اننى عندما تزوجت أمك ، لم أتزوجها لذكائها ورقتها وقوة شخصيتها ، وانما أعجبتنى أيضـــا أصابع يديهـــا الطويلة الرقيقة ، كانت امرأة فاتنة فى كل ما تقول أو تفعل .

رد الأمير : لكننى أحب انسانة لم أرها . أحبها لجمال قدميها ، لكننى لم أر قدميها .

قال الملك : وكيف هـــذا يا بنى ؟.

رد الأمير : وجدت حذاءها ، فشكل الحـــذاء يدل على أن صاحبته جميلة القدمين .

قال الملك : ارنى الحـــذاء .

فتأمل الملك الحذاء ثم قال : حذاء من ذهب ! انى رغم ثرائنا لم أفكر يوما فى انتعال حذاء من ذهب . أين وجدته ؟.

رد الأمير : أحسست عند خروجى آخر مرة للصيد بعطش شديد ، فذهبت الى بئر أعرف مكانها وجذبت الدلو الى أعلى فاذا بى أجد هذا الحـــذاء فى المـــاء .

قال الملك : سأعثر على صاحبته ، فاهدأ يا بنى واطمئن . ان الأمر يسير . سأطلب من رجال الحرس والشرطة أن يدخلوا كل بيت ويأمروا كل فتاة أن تلبس الحذاء ، حتى يجدوا الفتـــاة التى يناسب الحذاء قدمها .

شعر الأمير بسعادة بالغة ، وقبل يد أبيه وعانقه . لكن الأمر كان أصعب بكثير مما كان الملك يتوقع ، فقد مضت شهور ورجال الحرس والشرطة يتنقلون من بيت الى بيت ومن مدينة الى مدينة ، دون أن يعثروا على فتاة واحدة يناسب الحذاء الذهبى قدمها .

هنا ازداد الأمير حزنا ، وازداد الملك حيرة ، فطلب اجتماعا عاجلا للوزراء وعرض عليهم الأمر .

تداول الوزراء طويلا واختلفوا وتعددت آراؤهم ، حتى اقترح كبيرهم فى النهاية الاستماع الى الأمير . حضر الأمير فسأله كبير الوزراء : « أبوسعك أن تدلنا على مكان البئر ؟ » وصف الأمير مكان البئر . فقال كبير الوزراء : « لقد أضعنا الكثير من الوقت . ان صاحبة الحذاء تقيم بلا شك فى مكان قريب من البئر ، وكان علينا أن نركز البحث منذ البداية على القرى والديار التى تقع قريبا من هذا المكان » .

عاد اذن رجال الحرس والشرطة الى البحث ، لكنهم كانوا هذه المرة أكثر يقظة ، فذهبوا الى القرية القريبة من البئر وطلبوا من جميع السكان الخروج من ديارهم والتجمع على شكل دائرة فى ساحة كبيرة وسط القرية . هنا بدأوا فى اعادة التجربة ، لكنهم لم يعثروا على فتاة يناسب الحذاء قدمها . قال رئيس الحرس والشرطة :

« انى لا أصدق أن جميع فتيات القرية هنا . توجد على الأقل فتاة غائبة . فمن هى ؟ » .

بدت الدهشة على الوجوه ، وأخذ سكان القرية يتبادلون الأسئلة والنظرات . وكرر رئيس الحرس سؤاله : من هى ؟.

لكن سكان القرية استمروا فى تبـادل النظرات والأسئلة ، وفجأة قالت بنت صغيرة :

ـ راعية البقر ! أين راعية البقر ؟.

هنا صاحت امرأة قبيحة الوجه : ماذا تريدون من راعيـة البقر ؟ انها ليست انسانة وانما مخلوق بين انسان وحيوان .

أمر رئيس الحرس والشرطة باحضار الفتاة ، فجاءت فتاة حافية القدمين فى ثياب قذرة ممزقة ، لكنها آية فى الجمال .

وتعجب رئيس الحرس قائلا : هذا الجمال فى هذه الثياب !؟.

ثم أمر الفتاة بأن تلبس الحذاء ، فقالت : لا داعى لهـذا . انه حـذائى .

واندهش رئيس الحرس ورجاله لتأكدها وثقتها من نفسها .

قال رئيس الحرس : ما اسمك ؟.

أجابت : بو ـ شا .

قال : ان كان هـذا الحذاء حذاءك ، فلابد أن يكون عندك الحذاء الثانى . أم هل فقدت كلا الحذاءين ؟.

أجابت : هو عندى وسأريكم اياه ان جئتم معى الى حيث أقيـم .

ذهبوا معهـا ، لكنهـا لم تكن تقيم ببيت وانما بحظـيرة للحيوانات ، فتحت بابها ثم عادت ومعها صندوق كانت قد خبأته فى كوم من القش ، فتحت الصندوق فرأى رئيس الحرس بداخله الحذاء الذهبى الثانى وتاجا من اللؤلؤ والأحجار الكريمة ، وقارن الحذاء بالحذاء الآخر ، فوجد أن كليهما يطابق الآخر . لكنه مع ذلك أراد التأكد وأصر على أن تلبس الفتاة الحذاء . فطلبت منه الانتظار قليلا ، ودخلت الحظيرة مرة أخرى وأغلقت الباب وراءها .

هنا توقفت نفروتيتى لتقول : انى أتمنى لكم جميعـا ليـلة سعيدة ونوما هادئا وأحلاما جميلة ، سأكمل القصة غدا .

لكن اخناتون اعترض وأصر على أن تروى نفروتيتى القصة حتى نهايتها .

قالت نفروتيتى : انى أفضل أن أتوقف هنا كى يزداد شوقك لمعرفة النهاية فلا تشعر غـدا بالملل وانما تنتظر بفـارغ الصبر مجىء المسـاء .

قالت تى ـ يا : قولى لنا على الأقل ، هل ستخرج الفتاة من الحظيرة مرة أخرى أم هل ستختفى نهائيا ؟.

وقالت ماريتاتون : ان لك يا أماه حيـلا كثيرة ، ولا أظن أن هذه القصة قد حدثت فعلا .

وقالت ماكيتاتون : وأنا أفكر فى المقدمة التى أضحكتنا كثيرا ، فلا أصدقها . فهل من المعقول أن يكون البغل أديبا والعجل طبيبا ؟.

هنا ضحك اخناتون وقال : ان كانت القصـة من أولهـا

الى آخرها من اختراع أمك ، فهــذه الجملة على الأقل من صميم الواقــع .

قالت ماكيتاتون : وماذا خلق المولى عز وجل فى البداية ؟.

أجابت نفروتيتى : خلق الأسماك ، ثم الطيور ، ثم الحيوان ، ثم الانســـان .

قالت تى ــ يا : أين قرأت هــذا ؟.

أجابت نفروتيتى : سمعت أبى يقول ذلك .

واندهش اخناتون : الأسماك ، ثم الطيور ، ثم الحيوانات ، ثم الانســـان ! سأفكر غدا فى هــذا . لكننا نريد الآن التسلية ولا نريد العلم . هيا أكملى قصتك !.

قالت ماريتاتون : لقد رويت لنـــا قصة الأمير ، لكن ما هى قصة الفتــاة ؟.

وقالت تى ــ يا : أنت على حق يا بنيتى . لقد روت أمك لنا نصف القصة ويهيأ لى انها بدأت بالنصف الثانى ، ذلك أن قصة الفتاة لابد أن تكون أكثر غرابة من قصة الأمير .

قالت نفروتيتى : انى بعد كل هــذه الأسئلة والتعليقات على غير استعداد لتكملة القصة .

وصاح الجميع : اكملى القصة ! أكملى القصة !.

قالت نفروتيتى : ان تركتمونى أروى لكم اولا قصة ثانية واستمعتم فى هدوء دون مقاطعة . فأنا على استعداد لتكملة القصة الأولى بعــد ذلك .

ورحبوا جميعا بهذه الفكرة ، وقال أخناتون : « ستروين لنا هذه الأمسية اذن قصتين ؟ » .

وقالت ماريتاتون : قصتان فى أمسية واحدة ! ما أجمل ذلك ! .

عادت نفروتيتى للحديث فقالت :

فى قـــديم الزمان .

وبعــــد أن بدأ الكفر .

يظهر ... والايمان .....

هنا اعترض الجميع قائلين انهم لا يريدون مقدمات جديدة ، وطلبوا من نفروتيتى أن تبدأ بالقصة مباشرة . فأطاعت نفروتيتى قائلة :

حسنا ! كان هنـــاك راع للغنم ، يصعد بغنمه فى الصيف الى أعلى الجبال ، فاذا سقط الثلج فى الشتاء نزل بها الى السهول والوديان ، فهو يتوجه دائما الى حيث الخضرة والمناخ المعتدل . لكن الأمطار بدأت تقل من عام لعام ، والأرض بدأت تجف وتتشقق من العطش تحت نار الشمس ، فأخذ الراعى يتجه نحو الشمال ، خيمته ومتاعه فوق جمله ، وبجانبه زوجته الشابة الجميلة فى ثياب الراعية الزاهية الألوان .

وكانت زوجته تشاركه فى كل ما يفعل ، فأحبها حبا شديدا ، وكانت تمضى عليهما أحيانا شهور طويلة وحدهما فى الصحارى والجبـــال دون أن يقابلهما انســـان . وكان لهما أمل واحـــد

وهو أن ينعم الله عليهما بصبى ، كى يقف الى جانبهما عندما يتقدم بهما العمر .

وحملت الشابة الجميلة ، وانتظرا تسعة أشهر ، فلما وضعت دخل عليها فوجدها غير راضية .

قال : ما أسعدنا ، فأنت فى صحة وسلام ، ولنصل للخالق شاكرين .

قالت : لكنها بنت !.

قال : ارادة الخالق ونعمة منه ، ومن يدرى فقد تكون خيرا من صبى .

هنا ابتسمت زوجته وعاد الهدوء والرضا الى نفسها .

واستمرت الحياة هكذا ، والطفلة تكبر يوما بعد يوم ، وها هى ذى تسير يوما ما وحدها ممسكة بثياب أمها ، ثم تكبر فتعدو وراءها ، وتبلغ من العمر أربع سنوات فتتجول وحدها وبجانبها كلبها الكبير يحرسها ويحرس الغنم .

لكن الأم أحست يوما بشىء من الاجهاد ، فقرر زوجها التوقف عن المسير ، ونصب خيمته وبدأ يعالج زوجته باعطائها لبن الماعز وعسل النحل وتدليكها فى رقة وحنان ، وأخذ يقبلها ويدللها ويمسح بيده على جبينها ، فاذا استيقظ فى منتصف الليل وجد زوجته قد انتقلت روحها الى خالقها ، فحملها الى خارج الخيمة وأخذ يتأمل وجهها الجميل فى ضوء القمر ، ويبكى دموعا حارة ، فلما طلع الفجر بدأ يحفر قبرا لها ، ثم دفنها قبل أن تستيقظ الصغيرة .

وكان أول ما فعلتــه الصــغيرة حينما استيقظت هو أن بحثت عن أمها فأخبرها أبوها أنها سبقتهم الى قرية يسكن بها خالها ، كى يبحث لهم عن دار يقيمون بها بعــد أن ملوا حيـــاة الرحالة والخيــام .

وكان الراعى بعد أن دفن زوجته قد قرر فعلا أن يبيع الغنم ويشترى قطعـــة من الأرض يزرعهــا ودارا صغيرة يقيم بهــا مع ابنته الصغيرة ، التى كانت تدعى حا ـــ بوبا .

وهكذا سار معها أسابيع حتى وصلا الى القرية التى كان قد عزم على الاقامة بها . وكانت حا ـــ بوبا خلال هذه الأسابيع لا تتوقف عن السؤال عن أمها . فان أعد أبوها الطعام وقدمه لها قالت أثناء الأكل : « انك وضعت الكثير من الملح . ان أمى تجيد اعداد الطعام خيرا منك » وان قدم لها كوبا من اللبن قالت بعــد أن تأخذ جرعة أولى تروى بها عطشها : « لقد ملأت الكوب حتى حافته ، فسال اللبن على ثوبى . ان أمى لا تملأ الكوب أبدا حتى حافته » وكلما حملها فى المساء الى فراشها ، قالت قبل أن تنام : « منذ ذهبت أمى وأنا لا أشعر بالدفء فى الفراش . انك لا تحسن اعداد الفراش » وكان الراعى كلما سمع حا ـــ بوبا تتكلم هكذا يكافح كى يكبت دموعه ، فقد كان يعلم خيرا منها أن أمها كانت رقيقة عذبة ، حريصة حذرة فى كل ما تفعل .

وصلا الى القرية فاستبدل الراعى حياة الرحالة بالاستقرار ومهنـــة الرعى بمهنة الفلاحة وبدأ حياته الجـديدة ، لكنه كان

لا يصدق أن زوجته الشابة الجميلة لم تعد بعد كائنة فى الوجود بل كان ينسى أحيانا أنها ماتت فيحلم بينما يحرث الأرض أنها جانبه تبتسم وتقول : « ما أجمل الاستقرار ! » فيلتفت يمينا ويسارا ، ولا يرى مخلوقا ، فيستيقظ من حلمه ويلقى بالفأس ثائرا ناقما . كان يؤمن بالخالق ، لكنه لم يكن بعد قد تقبل ارادته ، بل كان أحيانا ، عندما يعود فى المساء وحده الى داره وبيده ابنته ، يصيح موجها نظراته الى السماء : « لماذا ؟ لماذا ؟ » .

وفى احدى الليالى استيقظت الصغيرة تشكو من ألم شديد فى بطنها ، ولما عجز أبوها بكل الوسائل عن تخفيف آلامها ، قالت : « أمى تضع يدها الدافئة فوق بطنى فيختفى الألم » وضع الرجل يده فوق بطنها فبدأ الألم يختفى فعلا وهدأت البنت ، لكنها قالت : « لقد اختفى الألم ، لكن يد أمى أكثر دفئا من يدك ، ويدك أيضا خشنة » .

هنا قال الرجل لنفسه : « ان الصغيرة فى حاجة الى ام عطوف » . وعندما طلع الصباح ذهب الى عجوز بالقرية كانت قد جعلت من مسألة الزواج مهنة رابحة ، فهى تبحث للرجال عن نساء وتبحث للنساء عن رجال ، وتتقاضى المال من الطرفين .

وسألته العجوز عن أوصاف المرأة التى يريد أن يتزوجها فقال : « أهم شىء أن تكون أما ثانية لطفلتى الصغيرة . انى أريد امرأة حنونا تعامل اليتيمة بعطف ورقة » .

دلته العجوز على امرأة تزوجها . لكن يا للأسف ! لم تكن

امرأة عطوفا وانما امرأة شريرة ، أحست بحب الرجـل لطفلته فبدأت تغار من الطفلة وتكيد لها . ومما زاد الطين بلة أنها حملت وأنجبت طفلة قبيحة الوجه فزادها هـذا كراهية لحا ـ بوبا وحقـدا عليها ، فأصبحت تضربها وتسبها وتكيل لهـا اللعنات ولا تعطيها ما يكفيها من طعـام ، والويل كل الويل لحا ـ بوبا ان قصت شيئا من هذا لأبيها ، فالمرأة كانت عندئذ تنتقم منهـا وتغـالى فى تعذيبها .

هكذا مرت السنين ، حا ـ بوبا تكبر وتزداد جمالا رغـم ما هى فيه من بؤس وما تعانيه من آلام ، أما أختهـا الصغيرة فيزداد قبحها رغم ما تأكله من خـير الطعام وما ترتديه من أغلى الثيـاب .

فلما أصبح كل شـباب القرية يحبون حا ـ بوبا ، بينما لا يعير واحد منهم نظرة الى وجه أختهـا القبيح ، قررت المرأة أن تقيم الفتاة الجميلة بحظيرة الحيوانات ولا تغادرها الا اذا ذهبت بالبقرة الى المرعى .

ولم يكن بوسع حا ـ بوبا الا أن تطيع أمر المرأة ، فدخلت الحظـيرة ، لكن ما أكثر دهشتها عنـدما سمعت البقرة تقول : « لا تحزنى يا حا ـ بوبا . اشربى من لبنى فهو خـير غـذاء . واحكى لى همومك ، فسأستمع اليك دائما فى صبر واهتمام وسأكون لك خير رفيق » .

بكت حا ـ بوبا ، وقبلت البقرة وقررت أن تعتنى بهـا كل العناية ، وأن تجعل منها صديقة لهـا .

فلما جاء الشتاء وشعرت حا ـ بوبا بالبرد ، قالت البقرة :
« انى أنصحك بالغـزل يا حا ـ بوبا ففى هـذا تسلية لك ،
وبعد التسلية يصبح فى حوزتك رداء من الصوف يدفئك » .

وأطاعت حا ـ بوبا هـذه النصيحة . لكنها خرجت يوما
بالبقرة الى حيث الحشائش الخضراء ، وتركت البقرة ترعى ،
بينما جلست هى تحت شـجرة تغزل ، فاذا بالريح يطيح بكرة
الصوف . أخذت حا ـ بوبا تعدو وراء الكرة ، خائفة من عقاب
زوجة أبيهـا عندما تخبرها بأنها فقدتها ، أخذت تقفز من صخرة
الى صخرة فاذا بها ترى الريح تقذف بكرة الصوف الى داخل كوخ
صغير ، فأسرعت بدورها نحو الكوخ فدخلته . وهنـا شاهدت
منظرا عجيبا .

توقفت نفروتيتى عن الحديث وسألت الجميع :

ألا تريدون النوم ؟ انى أرى النعاس يظهر على وجوهكم .

صاحت ماكيتاتون : لا نريد النوم اطـلاقا . نحن فى غاية
اليقظة . نريد الاستماع الى النهاية ، فاستمرى يا أماه !.

وقالت ماريتاتون : دعى هذه الحيل يا أماه ! لقد طلبت منا
ألا يقاطعك أحد ولم يقاطعك أحد حتى الآن فلماذا تتوقفين ؟.

وقال اخناتون : انك راوية تستمتع بتعذيب جمهورها .

وقالت تى ـ يا : أكملى يا ماكرة . ان من عادة الأمهـات
الغـيرة من زوجات أبنائهن ، لكنى أقسم لك ، لو كنت رجـلا

لما تزوجت غيرك ، فلست جميلة فاتنة فحسب ، وانما لكل كلمة من كلماتك ولكل حركة من حركاتك ســحر غريب . هيــا اكملى القصة ! ماذا رأت حا — بوبا داخل الكوخ ؟.

عانقت نفروتيتى تى — يا شــاكرة اياها على مديحهــا ، ثم عادت تروى ضاحكة :.

لقد رأت حا — بوبا داخل الكوخ ساحرة ، ساحرة حقيقية ، بيضاء الرأس ، بيضاء الوجه ، ترتدى ثوبا أبيض ، لكن شعرها الأبيض كان فى الواقع خيوطا من الصوف .

لم تشعر حا — بوبا بالخوف ، بل أحست بشىء من الشفقة مع هــذه العجوز الوحيــدة ، أحست بشىء من الشفقة وبكثير من الهيبة ، فانحنت أمام العجوز وقبلت يدها قائلة : « انى آسفة لازعاجك يا خالتى ، لقد قذفت الريح بكرة الصــوف الى داخل الكوخ ، ولخوفى من عقاب زوجة أبى تتبعت الكرة حتى وصلت الى الكوخ ، فدخلته دون استئذان » .

قالت الساحرة : أهلا بك يا بنيتى . لقد قذفت الريح بكرة الصــوف مرة أخــرى الى النافذة وأطاحت بهــا الى الخارج . لكن لا داعى للبحث ، ان فوق رأسى الكثير من الصوف فخذى منه ما تشائين .

لكن حا — بوبا أبت قائلة : انى لست على هــذه الدرجة من الوقاحــة يا خالتى . كيف أجرؤ على نزع أى شىء من فوق

رأسك . ان كنت فقدت كرة الصوف فهذا قدرى وعلى أن أتحمل عواقبه ، وليكن ما يكون .

قالت الساحرة : يا لك من فتاة رقيقة طيبة القلب ، لقد أردت أن أمتحنك ففاقت النتيجة كل ما كنت أتوقع . عودى اذن الى دارك وستجدين فى كل زاوية من زوايا الحظيرة كرة كبيرة من الصوف .

فرحت حا ــ بوبا ، وقبلت يد العجوز ، وارادت الانصراف ، لكن الساحرة قالت : انتظرى قليــلا . انك وحيــدة ، تعيشين فى عزلة تامة وتقاسين من شر زوجة أبيك . لكننى سأكون دائما بجانبــك وسأساعدك عندما تحتاجين الى مساعدتى . استمعى جيــدا الى ما سأقول . ان رغبت فى شىء فارسمى صورته فوق أرض الحظيرة ، ثم اذهبى الى باب الحظيرة وافتحيه ، فستجدين أمامك فى الخارج ما تريدين . وان أساء اليك انســـان فارسمى صورته فوق أرض الحظيرة ، ثم افعلى بالصــورة ما تشائين ، فسيحدث لهذا الانسان ما حدث لصورته . ارسمى صورة زوجة أبيك بعين واحدة ، فستفقد فورا احــدى عينيها ، أو ارسمى صورتها بذراع واحدة فستفقد فورا احدى ذراعيها .

قالت حا ــ بوبا : انى لا أجيد الرسم يا خالتى .

قالت الساحرة : اذن عبرى عن أى رغبة تشائين بالكلمات . لكن ابدئى جملتــك من الخلف ، فان أردت الحصــول على ثوب جميل ، لا تقولى : انى أريد ثوبا جميلا ، وانما قولى : جميلا ثوبا

أريد انى . وان سبتك زوجة أبيك لا تقولى : أيتها الآلهة اسكتوا صوت هذه المرأة الشريرة ! وانما قولى : الشريرة المرأة هــذه صوت اسكتوا الآلهة أيتها » .

قالت حا ـ بوبا : انى لا أريد ان أسىء لأى انسان يا أماه ، ولا لزوجة أبى الشريرة ، فهى انسانة مسكينة تسىء الى بدافع الغــيرة ، ولأن ابنتهــا قبيحــة الوجه . لا رغبــة لى يا أماه غير أن أعيش فى سلام مع بقرتى التى احبها وتحبنى .

هنا قالت الساحرة : لقد امتحنتك مرة ثانية وتأكدت الآن تماما من أنك فتاة بريئــة طيبــة القلب ، أحب شىء الى نفسك هو الخير . اذهبى اذن تصحبك السلامة ، واذا احتجت يوما لشىء ما فتحــدثى الى البقرة . لكن احترسى جيــدا ، فالبقرة لن تنفذ لك غير رغبة واحدة فقط ، ففكرى جيدا قبل أن تطلبى منها أى شىء .

أسرعت حا ـ بوبا الى المرعى فأخذت بقرتها ، وعادت بها الى الحظيرة ، لكنها وصلت بعد أن حل الظلام ، فاستقبلتها زوجة أبيها بالسباب واللعنات ، بل واتهمتها بأنها أمضت الوقت تلهو مع شاب من شباب القرية وسط الغابات .

تحملت حا ـ بوبا كل هــذه اللعنات والاتهامات ودخلت الحظيرة باكية والمرأة لا تتوقف عن السباب .

ومضت شهور فقرر كبير القرية أن يزوج ابنتــه ، ودعا الجميع لحضور حفل الزفاف فاشترت المرأة لابنتها ثوبا من الحرير

وحليا من ذهب وأخذت تزين وجهها ، لكن الحرير والذهب والزينة لم تزد البنت الا قبحا على قبحها . وقبل أن تغادر المرأة وابنتها الدار فتحتا باب الحظيرة ليتأكدا من وجود حا ــ بوبا ، وحذرتها المرأة قبل أن تعود الى اغلاق الباب من مغادرة الحظيرة أثناء غيابهما .

هنا شعرت حا ــ بوبا برغبة شديدة فى الذهاب الى حفل الزفاف والاستماع الى أنغام الموسيقى ورؤية الناس ، وبكت بكاء شديدا ، فقالت البقرة :

ــ كفاك بكاء يا حا ــ بوبا ! ماذا تبتغين ؟.

تذكرت حا ــ بوبا فجأة ما قالته لها الساحرة وشعرت بأن الذهاب الى حفل الزفاف هى رغبة لا تعادلها رغبة أخرى فقالت :

ــ ألست فتاة مثل الأخريات . انى أود الذهاب الى حفل الزفاف .

أجابت البقرة : فاذهبى اذن الى باب الحظيرة وافتحيه .

اندهشت حا ــ بوبا لأن البقرة كررت ما قالته الساحرة ، وأسرعت الى باب الحظيرة ففتحته ، فاذا بها ترى فى الخارج عربة جميلة سلمها سائقها صندوقا من الخشب .

قالت البقرة : افتحى الصندوق .

وكم كانت دهشة حا ــ بوبا ، فلم يكن بالصندوق ثياب من حرير وحلى من ذهب فحسب ، وانما كانت الروائح العطرية وزيوت الزهور وزجاجات تحتوى على ماء نقى مطهر طيب الرائحة .

قالت البقرة للديك : لقد جاء يومك . هيا قل لها ماذا تفعل !.

أسرع الديك الى حا ـ بوبا وأخذ يرشدها ، فخلعت ملابسها الممزقة وطهرت جسدها وتزينت وارتدت الثوب الحريرى ووضعت تاج اللؤلؤ فوق رأسها .

هنا قالت البقرة : العربة فى انتظارك أمام باب الحظيرة وانى أتمنى لك أمسية جميلة .

وقال الديك : وأنا أتمنى لك أيضا أمسية جميلة ، يا ليتنى كنت انسانا .

وكم كان اعجاب الحاضرين فى حفل الزفاف بجمال حا ـ بوبا . لقد ظنوا أنها أميرة قد مرت مصادفة بالقرية ، فرحبوا بها وقبلوا الأرض تحت قدميها وقدموا لها خير المأكولات والمشروبات ، وكانت أمنية كل منهم أن تنظر اليه حا ـ بوبا ولو نظرة واحدة . وشاهدت حا ـ بوبا زوجة أبيها وابنتها القبيحة اللتين لم تتعرفا عليها ، بل أسرعتا مثل غيرهما وقبلتا الأرض تحت قدميها فكانت تجاههما لطيفة وديعة ، وأمضت بدار العرس ساعة أو أكثر ، ثم قررت الانصراف فخرجت يودعها والد العروس وكبار المدعوين وركبت العربة التى كانت فى انتظارها .

لكن يا للغرابة ! لقد توقفت العربة فجأة فى منتصف الطريق ونزل سائقها ففتح الباب مشيرا الى حا ـ بوبا بضرورة مغادرتها للعربة . ففعلت . لكنها ما كادت تغادر العربة ، حتى اختفت العربة وبها سائقها وكأن الأرض قد ابتلعتها .

وقفت حا ـ بوبا وحدها فى الظلام . وفجأة حدث شىء غريب .

هنا توقفت نفروتيتى لتقول — ألا تريدون النوم !

وصاحتا ماريتاتون وماكيتاتون . لا ! لا نريد النوم . أكملى القصة ودعك من هذه الحيل يا أماه .

وقالت تى — يا : انهـــا تتوقف عن الرواية فى اللحظات التى تزداد فيها رغبتنا فى الاستماع . أكملى القصة يا نفروتيتى !

قالت نفروتيتى : وقفت حا — بوبا وحدها فى الظلام فاكتشفت فجأة شيئا أزعجها . لقد اكتشفت أنها عند نزولها من العـربة فقدت حذاءها الذهبى .

قالت ماريتاتون — أى حذاء ذهبى !

وقالت ماكيتاتون — انك لم تذكرى حتى الآن هذا الحذاء .

عادت نفروتيتى فقالت — انه الحذاء الذهبى الذى تسلمته فى الصـــندوق مع الثوب الحريرى وتاج اللؤلؤ والروائح وزيوت الزهور . ألم أذكر هذا ؟

قالت تى — يا — لا ! لم تذكرى هذا اطلاقا .

وقال أخناتون : لم تذكرى هذا عمدا . لأنها ليست قصة ثانية وانما تكملة القصة الأولى .. وكان هدفك بطبيعة الحال ألا نتنبه لهذا .

قالت ماريتاتون — فعلا يا أبتاه . ألم تكن الفتاة التى عثر عليها رئيس الحرس راعية للبقـــــر ، تعيش وحدها فى حظيرة الحيوانات .

قالت ماكيتاتون : لكن أمى ماكرة ، فقد سمت الفتاة باسم آخر ، فأصبح اسمها حا — بوبا بدلا من بو — سا .

قالت نفروتيتى — أنتم على حق . بو — سا هى حا — بوبا ،

وحا — بوبا هى راعية البقر التى فقدت حذاءها الذهبى ، الذى وجده الأمير فى البئر ، وهى الفتاة التى عثر عليها رئيس الحرس والشرطة .

وسألت ماريتاتون — لكنك لم تكملى القصة . ماذا فعل رئيس الشرطة ؟

قالت ماكيتاتون — النهاية واضحة . دخلت بو — سا الى الحظيرة فارتدت ثوبها ولبست حذاءها ووضعت تاج اللؤلؤ فوق رأسها ثم عادت الى رئيس الحرس .

قالت ماريتاتون — فركع رئيس الحرس أمامها خشوعا لجمالها ثم أخذها للقصر وللأمير الذى شعر بسعادة لا حدود لها وتزوجها .

قالت ماكيتاتون — وعاشوا فى التبات والنبات وخلفوا صبيان وبنات .

وضحك الجميع واستغرقوا طويلا فى الضحك وشكروا نفروتيتى التى قبلت ماريتاتون وماكيتاتون ثم قادتهما الى فراشهما . فلما عادت قبلت يد تى — يا وتمنت لها نوما هادئا .

ثم سألت أخناتون : أراض أنت عن الأمسية ؟ .

أخناتون : أمسية جميلة حقا . لم لا نكررها مرة ثانية هذا الأسبوع ؟

نفروتيتى — ان كانت هذه رغبتك فانى فاعلة . لكنك لم تخبرنى بعد عن رأيك فى القصة التى رويتها .

اخناتون — قصة شيقة ودرس فى فن الرواية ، اذ أضافت الى ما نعلم معرفة جديدة تقبلناها دون ملل ، بل وفى ترحيب

وسرور . فتعلمنا منك قبل البداية أن النار أهم اكتشاف فى تاريخ الحضـــارة البشرية ، ثم جاءت تلك المقدمة التى أضـــحكتنا كثيرا والتى أفهمت الأطفال أن عصرنا هذا ليس أول الزمان ولا آخره وانما حلقة واحدة فى سلسلة طويلة متصلة . بعد ذلك وصـــف لحياة الرعاة ومقارنة بينها وبين حياة الفلاحة والاستقرار ، وهى أمور لابد أن يهتم بها أطفالنا ، والرواية بذلك لم تأخذهم كليـــه الى عالم الخيال وتبعد بهم عن واقع الحياة ، وانما هى عـــلى العكس حاولت أن تقرب بينهم وبين هذا الواقع .

نفروتيتى — لكن ايصال المعلومات وتوسيع أفق المستمع وان كان جانبـــا لا يستهان به فى فن القصة فهو مع ذلك مســـألة ثانوية ، فنحن لا نحكم على رواية بأنها جيدة أو رديئة بمقياس ما تتضمنه من معلومات .

اخناتون — لم أقصد هذا . وما أحتوته القصة من حقائق وأخبار ليس أهم ما لفت نظرى ، فمن يبحث عن المعرفة لا يستمع الى الروايات وانما يلجأ الى الموسوعات . وان أردت الحقيقـــة فقد أعجبنى أكثر من كل هذه المعلومات محاولة تهذيب حاســـة الجمال فى الأطفال ولفت نظرنا جميعا الى جمـــال اليدين ، وهو الأمر الذى قلما نهتم به . والروائى بمثـــل هـــذه المحاولات يقوم بدور تربوى هام . فان كان ايصال المعلومات ليس من واجبات فن الرواية ، فأظن أن لهذا الفن — أراد أم لم يرد — دورا تربويا هاما مثل غـــيره من الفنون . لقد لاحظت أن الانســـان كلما كثر اتصاله بالفن ، ازداد شعوره رقة واحساســـه ارهافا ، وتأثير الرواية هنا لا يختلف عن تأثير الموسيقى أو الرسم أو الرقص أو النحت أو غيرها من الفنون .

نفروتيتى — لكن الفنان كما تقول أنت يحقق هذا الهـــدف التربوى دون ارادته . أما ما يســـعى اليـــه الراوى عامدا ، فهو

أمور أخرى ، ولا أراك قد تعرضت لأى منها حتى الآن . هل تعتقد مثلا أننى أجيد فن رواية القصة فى حد ذاته ، لا كمعلمة ولا كمربية وانما كراوية ؟

اخناتون — أظن أن الراوى هو أولا انسان له القدرة على وصف الأحداث ، ووصف سلوك الناس من فعل وكلام .

نفروتيتى — وثانيا ؟

اخناتون — ثانيا أن الراوى لا يكتفى بمراقبة ما يحدث وانما يحاول فهم ما وراء الحركات والكلمات ، وما وراءها هو ما يدور فى داخل الانسان . عباقرة الرواة لهم قدرة فذة على رؤية ما يدور بداخل النفوس .

نفروتيتى — هذا أمر لا نختلف فيه ، لكن لا أظن أن بالقصة التى رويتها الليلة شيئا من تحليل ما يدور بالنفوس .

اخناتون — بل الكثير . دعينى أذكر لك على سبيل المثال وصفك لتصرفات بو — ســـا تجاه أبيهـــا بعـــد موت أمها ، فهو وصف يدل حقا على معرفة عميقة بنفسية الأطفال .

دهشت نفروتيتى لانتباه زوجها لكل صغيرة وكبيرة ، لكنها عادت تقول :

حسنا ! دعنى ألخص اذن ما قلته لى حتى الآن . قلت أن الراوى معـلم ومرب أراد أم لم يرد ، لكنه كى يكون راوية لابد أن تكون له قـدرة فائقـة على رؤية وفهـم ما يدور فى النفس البشرية . لكن دعنى أقول لك أن هذه كلها أمور هامة لكنهـا ليست كل شىء فى فن الرواية .

اخناتون — قلت لك أول ما قلت فى بداية حديثنا أنها كانت قصة شـيقة . وأعنى بهذا أنها غير رتيبة مملة ، وانما كثيرة التغيير . وانك لراوية بارعة حقا ، فقصتك تبدأ بمقدمة اتصـل فيها عمق الفكر بالفكاهة ، فكانت متعة للعقـل والروح فى آن واحد ، ثم تنتقل بعد ذلك الى قصة الأمير الذى لا يحب فى المرأة غير جمال قدميها ، ونحن وان كنا نرثى لحاله ، الا اننا لا نشعر تجاهه بكثير من الشفقة ، وانما نميل الى السخرية منه كما قال . لكن القصة تنبهت لهذا فأعطت لهذا الأمير المضـحك أبا عادلا حكيما يستحق اهتمامنا فنحن نهتم بالأمير لاهتمامنا بأبيه .

لكن القصة تنتقل بنا وفى سرعة غريبة الى وصف حيـاة الراعى وزوجته الشابة الجميلة ، وهى حياة سعيدة وان كانت صـعبة ، لكنها تنتهى بموت الراعية وبكلمات ابنتها الصـغيرة فنجاهد كى نكبت دموعنا بعد أن كنا فى البداية نجاهد كى نكتم ضحكاتنا .

أنت اذن راوية تلعب بأحاسيس المستمع وانفعالاته وتؤثر عليها كيفما شاءت ، فمن ضحك الى رثاء وسخرية ، الى اهتمام واعجاب ، الى حزن وتألم ، ثم بعد ذلك الى أمور غامضة تنطوى على أسرار نعجز عن فهمها ، مثل كوخ العجوز التى ينمو فـوق رأسها الصوف وما لقنته لبو — سا من حيل سحرية عجيبة .

نفروتيتى — أعجبك فى القصة اذن أنها ليست رتيبة مملة .

اخناتون — لقد أمرت منذ شهور بجمع ما يرويه الرواة من قصص على الناس وتسجيله فوق أوراق البردى ، فهى كنوزا يجب أن نحتفظ بها . لكن هالنى مع الأسف أن أكثر هؤلاء الرواة يميلون الى حل المشاكل عن طريق ساحرة أو عملاق ، وأن حيلة الساحرة هى دائما كرة ذهبية أو عصا ذهبية أو قداحة ذهبية ، والقدر يقف الى جانب بطل القصة فسرعان ما يمتلك هذه الكرة أو تلك العصا ، ويأمرها بما يشاء فتمطر السماء فضة وذهبا والماسا .

وقصتك هى الأخرى بها ساحرة قد وقفت الى جانب بو — سا . لكن الفارق مع ذلك كبير . فالقصص الأخرى مملة رتيبة ، ثم أنها فى وصفها للسحر بعيدة كل البعد عن الواقع ، فلم تكن وسيلة السحر أبدا قداحة ذهبية أو كرة نحاسية ، وانما كانت وسيلته دائما الرسم والكلام . وقد أعجبنى أنك وضعت هذه الحقيقة فى الاعتبار عند وصفك للساحرة وما لقنته لبو — سا . من أين لك بكل هذا العلم ؟

نفروتيتى — قادنى أبى يوما ما الى مغارة شهيرة بميتانى فشاهدنا رسوما رسمها القدماء فوق صخور داخل المغارة . وعندما قلت : « ياله من فن رائع ! » رد والدى قائلا : « لم يكن فنا يا ابنتى وانما سحرا . لقد كانوا يرسمون الحيوان وقد أصابه السهم لايمانهم بأن ما يحدث لصورة الحيوان سيحدث بعد ذلك للحيوان نفسه » .

اخناتون — كان أبوك قاسيا فى حكمة . فقد كانت هـذه الرسوم فنا وسـحرا فى وقت واحد ، أو فلنقل أن الفن فى هذه الحالة كان وسيلة للسـحر ، وأن بين الاثنين منذ البداية علاقة وطيدة .

نفروتيتى : لم لم تخبرنى بأنك قمت بجمع ما يرويه الرواة من قصص ؟.

اخناتون — نسيت هذا فاغفرى لى .

نفروتيتى — أكمل نقدك اذن .

اخناتون — أظننى قلت كل شىء .

نفروتيتى — قصتى جميلة لأنها غير رتيبه . هذا كل ما قلته حتى الآن .

اخناتون — هناك أمر آخر . انتظرى .

أحضر الملك لفافة من أوراق البردى وقلما وأخذ يخط شكلا توضيحيا ..

أعطى الملك زوجته الرسم التوضيحى ثم قال :

ان كل ما قرأته من القصص يبدأ وينتهى على نفس المنوال ، فنرى فى البداية انسانا بائسا ، لكن القدر يساعده ، فيتزوج ان كان شابا ابنة الملك وان كانت فتاة ابن الملك . والانسـان عند قراءة بداية القصة على يقين من نهايتها . لقد قالوا لى عنـدما أبديت هذا الرأى أنها قصص أكثرها للأطفـال ، لكننى لو كنت طفلا لشعرت بالملل بعـد قراءة ثلاث منها ولما عدت مرة أخرى لقراءة قصة رابعة .

نفروتيتى — وقصتى ؟

اخناتون : لقد ادركت أن قصة الفتاة أهم من قصة الأمير ، وأظن أنك تلجئين فى تشويق المستمع الى وسيلة التصعيد المستمر ، لذا بدأت قصتك بما هو أقل قيمة وأجلت ما هو أهم . لكنك مع ذلك جعلت من قصة الأمير قصة مستقلة ، ومشكلة لذاتها وان كانت طبعا أقل أهمية من مشكلة الفتاة .

بدأت قصتك اذن بالنصف الثانى لأنه أقل أهمية من النصف الأول ، ثم عادت الى النصف الأول فروت حوادثه حتى اتضح لنا أنهما ليستا قصتين وانما قصة واحدة . ثم أبيت أن تروى النهاية السعيدة وطلبت من المستمع أن يجدها وحده فوجدها الأطفال دون عناء وهذا نجاح كبير .

وصمت الملك لحظة ثم عاد الى الحديث ليقول :

ان فى رواية القصص بهذه الصورة تربية قيمة للأطفال ، ومن يدرى فقد تصبح بنت لنا راوية شهيرة ، تحدث تجديدا فى فن الرواية فى مصر ، نحن فى أشد الحاجة اليه .

قالت نفروتيتى — انى شاكرة لك على هذا التحليل المفصل الوافى . لقد علمتنى الكثير ولم أكن أدرى قط أنك ناقد أدبى بارع على هذه الدرجة من الحدة والدقة . لكنك نسيت أمرا هاما .

اخناتون — وما هو ؟

نفروتيتى — تقول أن من واجبات الراوى أن يعلم ويربى وينمى حاسة الجمال ويهذبها ، وتقول انه الى جانب هذا يريد أولا

وأخيرا التسلية ، لذا فعليه أن يبحث عن التغيير المستمر والانتقال بالمســـــتمع من جو الى جو آخر . كل هذا صحيح . لكن لفن الرواية واجب آخر .

اخناتون ـــ وما هو ؟

نفروتيتى ـــ ان المستمع فى دنيانا هذه لا يبحث عن التسلية والتسرية فحســـــب ، وانما هو فى حاجة الى الســـلوى . لقد أوضحت لى فى رسمك هذا كيف تبدأ أكثر القصص وكيف تنتهى ، وهذه ليست مصادفة . ان الراوى أكثر ذكاء مما تظن . الراوى يعرف حياة من حوله من الناس لأنه واحد من هؤلاء الناس . هو على علم اذن بهمومهم . بآلامهم وآمالهم ، التى نادرا ما تتحقق وكثيرا ما تخيب ، وهو عندما يبدأ قصته ببطل بائس مســـكين ، انما يريد بذلك أن يحدث المســـتمع عن نفســـه ، يريد أن يرى المستمع نفسه فى مرآة الرواية .

تقـــول ان الراوى لابد أن يكون قـــادرا على تحليـــــل ما بالنفوس ، وأضيف أنا انه يلعب دورا أهم من ذلك بكثير وأسهل بكثير أيضا . ان الراوى يقوم فى دنيانا هذه بمهمة العلاج النفسى ، دون حاجة الى تحليل سابق ، فمآسى الناس ليست مآسى فردية ، وانما مآس بشرية جماعية . مآسى النـــاس ـــ وان ظنوا أنهـــا تتنوع وتختلف ـــ هى مآسى كل انسان . لذا يوحى الراوى الى مستمعيه أن بطل القصة واحد منهم ، أو أن كلا منهم هو بطـــل القصة . لكنه ينتقل بكل منهم من عالم الواقع الى عالم الخيال ، فيعطيه ماضنت به الحياة عليه من حظ وســـــعادة ، ويحقق له ما خيبته الحياة من أمانى وأحلام . المستمع انسان أساء اليه القدر فى واقع الحياة ، ثم عاد يصالحه ويعتذر اليه فى عالم الخيال . المستمع بعد انتهاء القصة كانسان كان يائســـا فأصبح يأمل من

جديد ، هو كالمريض عندما يغادر عيادة الطبيب بعد انتهاء العلاج . الرواية هى حلم من أحلام اليقظة ، وتأثيرها فى النفس مثل تأثير الأحلام .

صمت اخناتون ، واخذ ينظر الى النار فى المدفأة ، وصمتت نفروتيتى . ثم عاد الملك للحديث فقال : لكن هناك قصص تروى الواقع كما هو دون مصالحة .

أجابت الملكة : انها قصص لها جمهور محدود ، يحبها عادة المثقفون ، اما لأنهم يحيون حياة خيرا من حياة الآخرين ، واما لأنهم قادرون على تحليل أسباب شقائهم ، أما الشعب فينفر من تلك القصص الواقعية التى تعيد على الناس فى المساء ما عاشوه طوال يومهم ، دون تسرية عن النفس أو عزاء .

عاد اخناتون الى الصمت وطال صمته هذه المرة ، وصمتت الملكة ، ولم يجرؤ أحدهما خلال هذا الصمت أن ينظر الى وجه الآخر ، حتى قطع اخناتون هذا السكوت بقوله : وروايتك ؟ هل اختلفت فى تركيبها وتسلسل حوادثها لاقتناعك بأننا أسرة ملكية فى غير حاجة الى السلوى ؟

نفروتيتى — هى تنتهى على أى حال بانتصار الخير على الشر ، وفى هذا الكثير من السلوى لنا . ألست تناضل منذ أن عرفتك من أجل انتشار الخير ؟

قبلها اخناتون ثم قال — ستبقين عند وعدك ، وتقصين لنا رواية أخرى هذا الأسبوع ؟

قالت — انى فاعلة . فليلة هانئة وحتى الصباح .

وذهبا الى الفراش .

تمت فى أزمير ٢١ مارس ١٩٨٢ — على حسن

ظهـرت لنفس المؤلف

باللغـــة العربيـــة :

١ ـ النبى موسى
المصرى الذى قاد اليهـود — رواية

٢ ـ الأيام — قصص قصيرة مسلسلة

٣ ـ Homosexual
شذوذ الفرد وشذوذ المجتمع — رواية

٤ ـ وما يدريك ...! — رواية

٥ ـ أمينـــة الحزب — قصص قصـــيرة

باللغـــة الألمانيـــة :

٦ ـ Wenn Israel den Frieden wollte (1970)

٧ ـ Der Behaviorismus und der Fremdsprachenunterricht (1973)

٨ ـ Zur Kritik an der arabischen ölpolitik (1974)

تحت الطبـــع :

٩ ـ باللغـــة العربيـــة
رسالة الى الشيخ الشعراوى ومصطفى محمود

١٠ ـ باللغـــة الألمانيـــة — Fremd

رقم الايداع ٨٢/٥١٧٧

الترقيم الدولى ٧ ـ ٠٠٣٥ ـ ١٠ ـ ٩٧٧

دار عطـــوه للطبـــاعة

ALI HASSAN



MOSES

THE EGYPTIAN WHO BECAME THE LEADER OF THE JEWS



DAR EL FIKR EL ARABI